

الفصل الأول

نابليون وإيطالية

١٨١٤ - ١٨١٥

لقد كان الشعور بكيان قومي في إيطاليا في أوائل القرن التاسع عشر ضعيفاً ، فمن الواضح أن الطليان ظلوا يحنون إلى الأيام التي كانت فيها روما تملئ إرادتها على العالم . ولما زالت السيطرة الإسبانية عن إيطاليا في القرن الثامن عشر ، وتوقفت النمسة في الشمال ، وأخذت ييمونته ؟ تخطو خطاها في بطاء فقد ظل الطليان قانعين باتحاد وهمي لدول لا شأن لها يقوم مقام الأمة . ولقد كان النصف الآخر للقرن المذكور دور سكون وإصلاح أورث إيطاليا رفاة وتقدماً في الإصلاح الاجتماعي وازدهاراً في الفنون وإبداعاً في الشعر والغناء ، إلا أنها كانت فاقدة استقلالها ومحرومة حريتها . ثم نشبت الثورة الفرنسية ودفعت الإفرنسيين للتوغل في إيطاليا ، فانهارت بذلك الإمارات الإيطالية ، وأقام نابليون جمهوريات وممالك سرعان ما قضت قضاء مبرماً على السياسة الاجتماعية القديمة . ولعل إيطاليا هي البلاد الوحيدة التي تعتمد نابليون أن يشجع فيها الشعور القومي إذ لاح له أن وحدة التقاليد

واللغة والآداب كفيلة بأن تجعل من إيطالية أمة واحدة ، ومما حفزه على تأييد هذه الفكرة شعوره بأنه يمت إلى أصل إيطالى من جهة ، وأخذة بالسياسة التقليدية التى سارت عليها فرنسا فى إقامة موانع فى وجه النمسة من جهة أخرى . حقاً إن نابليون هو مؤسس إيطالية الحديثة ومما لا شك فيه أن إيطالية استفادت كثيراً من الاحتلال الفرنسى لأنه قضى على الإقطاعية السائدة فيها حينذاك ، وجعلها بقوانين موحدة ومراقبة نافعة ، وفتح فى وجه أبنائها أبواب الكفاية ، وأمد الصناعات بفيض من النشاط ، وساعد إلغاء الأديرة على التخلص من الديون ، فانتشرت المدارس فى لمبارديه ونابولى وحمل الجنود الطليان — الذين رافقوا نابليون فى أسفاره وغزواته حين عودتهم إلى بلادهم — ذكريات البطولة وبثوا فى الأمة روحاً جديدة .

ولقد أتى أسلوب نابليون فى سياسة البلاد بنتائج باهرة جداً ، إذ أزال سلطان الأمراء بالكلية وقضى بذلك على الدويلات العشر فى شبه الجزيرة ، فألحقت بفرنسة بيمونته الشرقية ودوقيات جنوة وبارمه وطوسكانه ودويلات الكنيسة حتى جبال الإبنين ، وتألقت مملكة إيطالية من دوقيات لمبارديه وفنيسييه ومودينة والرومانى والمارك ، فأصبح أوجين بوهارنه نسيب الإمبراطور وصياً عليها . أما نابولى فأصبحت مملكة يحكمها المارشال مورات^(١)

(١) أحد مارشالية نابليون وزوج أخته كارولين بونابرت .

فأسست هذه الدول روابط متبادلة وتشابهت إدارتها إلى حد ما .
ثم سقط نابليون فانهار بسقوطه كل ما قام به في إيطالية من
أعمال ، على أنه رغم ما أسدى إلى إيطالية من خدمات جليلة فإنه
في كثير من أعماله قد مس كرامة الطليان القومية ، وأثارحنقهم ؛
فقد مات منهم ستون ألفاً ونيف في إسبانية وفي روسية في سبيل
قضية لا ناقة لهم فيها ولا جمل ، فكانت الضرائب فادحة ، ودلت
أعمال الشرطة والرقابة السياسية في ذلك العهد على أن الحرية
والإمبراطور على طرفي نقيض ، أضف إلى ذلك أن المدن كانت
حائقة بسبب ما نهب من متاحفها من آثار . أما الإهانة التي ألحقها
بالبابا فكانت بمثابة تحرش بالدين واستهانة بوطنية الدهاء ، ومع
ذلك كله فالشعور بالوطنية الذي بثه نابليون ظل راسخاً في
النفوس ، وراح الطليان يعتزون بمفاخر مملكة إيطالية ويتحدثون
عن أمجادها ، فظالما سعى الحلفاء لتأليب البلاد على نابليون ملوحين
لها بالاستقلال ، وحين أخذ نجمه يأفل أبى أوجين بوهارنه أن
يلبى نداء قائده ، أما المارشال مورات فإنه أخذ يسعى للاحتفاظ
لنفسه بمملكة نابولي .

أما في ميلانو عاصمة المملكة فقد انشقت الآراء إلى شيع :
ف فريق يميل إلى النمسة ويدعى بالحزب الإيطالي ، وهو يرى في فرنسة
خطراً على السلم ويسعى في سبيل عودة الحكم النمسى ذا كراً
الحكم الذاتي الصالح في عهد ماريا تريزا ويوسف الثاني ، وكان

ساسة فينا يغدقون على الطليان الوعود الخلابة في الحرية والاستقلال .
أما أشراف ميلانو فقد كان أكثرهم ضد النمسة وضد نائب الملك
أوجين ، وقد ألفوا الحزب الإيطالي الحر ، وكانت غايته ضمان
استقلال مملكة إيطالية دون الاكتراث بجنسية الأمير سواء
أكان نمسويًا أم إنجليزيًا أم إيطاليًا ، بيد أن بعض الأشراف
كانوا يميلون إلى وحدة إيطالية بزعامة أسرة آل صافويه الإيطالية .
واتفقت الأكرثية على الاحتفاظ بميلانو عاصمة للمملكة ، وبذلك
كله يستعيد الأشراف ما فقدوه من امتيازات في عهد نابليون ،
ولم يلق أحد من هؤلاء بالا إلى فكرة الالتفاف حول الرجل
الوحيد الذي يستطيع أن يحقق استقلال إيطاليا ألا وهو أوجين
بوهارنه نائب الملك . ولما رأى هذا الرجل أن الأشراف تحلوا عنه
لم يجرؤ على دعوة المجلس التمثيلي ليستشير بواسطته الشعب خشية
أن يتهمة نابليون بالهيانة ، فلم يسعه حينئذ إلا أن يتخذ نصف
التدبير فطلب إلى مجلس الأعيان أن يمارس صلاحياته ، وطالب
الحلفاء في الوقت ذاته بالتناج لنفسه .

ولم يكن لدى مجلس الأعيان الإرادة الكافية ليتحمل عبء
تلك المهمة ، فاستفادت الأحزاب المعارضة في الداخل والخارج
من عجز مجلس الأعيان ، واتفقت فيما بينها على إسقاط نائب الملك
ومجلس الأعيان معاً . وما كاد يشيع خبر تخلي نابليون عن الملك
حتى لجأ الحزب الإيطالي إلى السلاح ، وطلب إلى مجلس الأعيان

دعوة المجالس التثيلية ، وهب الشعب يظاهر هذه الحركة ويضغط على مجلس الأعيان ليحمله على الإذعان ، فما كان منه إلا أن قدم وزير المال ضخمة لتردده وإهماله ، وكان في استطاعة قائد الحامية أن ينقذ الموقف بإرسال الجند لإتقاذ حياة وزير المال ، وكان في وسع جيش أوجين أن يقبض على ناصية الحال لو لم يخش من نشوب الحرب الأهلية . فكان من أمر ذلك أن انسحب مجلس الأعيان من الميدان ، فتولى المجلس البلدى مجلس الوصاية لمدة مؤقتة ، وأصبح هم هذا المجلس السعى لفصل لبارديه من إيطالية وإدخالها فى الحكم النمساوى ، فدعيت المجالس التمثيلية فى لبارديه فقط ، حيث يتكلم الناس باللهجة اللمباردية ، وأوفد مجلس الوصاية مندوباً عنه إلى باريس لمطالبة الحلفاء بالاستقلال والدستور ، ولكنه وجد أن مصير لبارديه قد بت فيه قبل وصوله ، ذلك لأن أوجين استسلم بلا مقاومة إلى القائد النمساوى الجنرال بلجارد وتحلى عن الملك ؛ فدخل هذا القائد ميلانو عاصمة لبارديه وأعلن انضمامها إلى النمسة ومع أن الجيش كان قادراً على مؤازرة أوجين إلا أن خيانة القادة وخور عنيتهم مكنتا بلجارد من اكتساب الوقت اللازم لإنزال الضربة القاضية ، وبعد أن قبض على القادة ألقاهم فى السجن .

ومع كل هذا فإن الوطنيين لم ييأسوا مادام نابليون فى جزيرة ألبه ، وظلوا يعلقون آمالاً على عودته للحكم ، وسعيه لإعادة استقلال إيطالية ، وأخذوا يتصلون به سرّاً ويعدون العدة لمساعدته

عند الحاجة . وكان ثم قائد آخر من قادة نابليون يسعى لطلب ود الطليان ، ألا وهو المارشال مورات أحد مارشالية نابليون الذين أنجبتهم الحروب الناشبة بعد الثورة الإفرنسية وقد نصبه نابليون ملكاً على نابولى ، كما نصب أوجين بوهارنه نائباً للملك فى إيطاليا . ولما رأى نابليون أن مورات يدبر الدسائس ليستقل بمملكته فكر فى أن ينبذه وأن يتفق مع آل بوربون ملوك نابولى القدماء إذا رضوا بأن يسيروا تحت رايته ، وكان مورات يعلم أنه إذا ما قضى على نابليون فلن يوافق الحلفاء على بقاءه ، فلذلك رأى أن أحسن خطة يسلكها هى أن يجعل نفسه بطلاً إيطالياً ليظفر برضاء الإيطاليين ، فراح يدبر الدسائس مع الحلفاء فعقد معاهدة سرية مع النمسة ، وعدته فيها بأن تعطيه نابولى وجزءاً من دويلات الكنيسة على أن يعترف بحقوق النمسة فى لمبارديه . وبينما كانت النمسة تسعى سراً لقلبه كان مورات قد اتصل بأوجين وحثه على رسم خطة مشتركة للدفاع ضد الحلفاء ، بيد أن أوجين لم يوافق على خيانة البابا فى روما ، ولما سقط نابليون واحتل النمسيون لمبارديه أصبح مورات فى موقف حرج ، ورغم أن الإنجليز كانوا يريدون التمسك بنصوص المعاهدة لضمان حقوق مورات فإن النمسة أرادت إعادة حقوق الملوك والأمراء المنفيين ، فاستفاد مورات من اختلاف الرأى ، وتقرب من الأحرار الطليان ، ووافق على عدة قوانين إصلاحية كان قد أجلها سابقاً ، واتصل بنابليون ولما فر

هذا من جزيرة ألبه رأى مورات أن الفرصة قد حانت فأعلن الحرب على النمسة ، وتقدم بجيشه نحو الشمال ، وأعلن استقلال إيطاليا ، وضم حوله الطليان ، وقد سارع فاحتل إيالتى الرومانى والمارك ، وبعد أن انتصر على النمسيين فى (سيزينه) تقدم فى إيالتى (بولونيه ومودينه) مع أنه لو توجه نحو ميلانو لكان فى وسعه أن يحطم قوات النمسيين لو لم يصنع لنصائح الإنجليز الذين خانوه . فأخذ بعد ذلك يخسر المارك ، وحاول عبثاً استفزاز حمية النابوليين والصقليين ليلتفوا حوله ، ولما رأى أنه قد فقد كل رجاء سلم سيفه للإنجليز وأضاع الطليان بذلك أملهم الأخير فى الاستقلال .

وعلى أثر انتصار الحلفاء على نابليون فى معركة (وترلو) فإنهم حنثوا بوعودهم ، إذ بت مؤتمر فينا فى مصير إيطاليا من دون أن يكثرث للعهود التى قطعها قادة الحلفاء للطليان أثناء الحركات ضد نابليون ، وكشف رجال السياسة القناع عن وجوههم ، حتى أن المندوب البريطانى فى مؤتمر فينا قال للوفد اللمباردى إن تجربة الحكومات الدستورية قد فشلت ، ولم تكن إيطاليا فى نظر المفاوضين فى مؤتمر فينا سوى أداة للتوازن السياسى ، فأمست غنيمة توزع على الملوك والأمراء . والأغرب من كل ذلك أن الحلفاء لم يكونوا متحدى رأى فى موضوع تجزئة إيطاليا

وكيفيتها ، فأنجلترة وروسية لم ترضيا بأن تصبح إيطالية إقطاعاً للنمسة ، وكانتا تميلان إلى إقصاء النمسة عن إيطالية إقصاء تاماً ، ولما كانت روسية تطمح في الحصول على ممتلكات أخرى في بولندة فإنها غضت النظر أخيراً عن مطالب النمسة في إيطالية .

أسفرت نتائج مؤتمر فينا عن تملك النمسة (لبارديه وفنيسيه وفالينتنه) واحتفظ البابا بممتلكاته في إيطالية المركزية ؛ أما ييمونته فإنها طالبت بإلحاق لبارديه بها ، إلا أنها لم توفق ولكنها جزاء لخدماتها قد صحت حدودها ، وألحق بها قسم من إيالة صافويه التي كان الفرنسيون قد ضموها إلى فرنسة عقيب الثورة ، وضمت جنوه أيضاً ، وهكذا خرجت هذه الدولة أقوى مما كانت عليه قبل حروب نابليون . أما في الأنحاء الأخرى فقد عاد الأمراء إلى ممتلكاتهم ، إلا أن النمسة أدخلت هؤلاء تحت نفوذها بعقد معاهدات مع أمراء طوسكانه ومودينه وبارمه ، وأقامت حاميات نمسوية في قلاعهم .

أما الملك فرديناند البوربونى فقد عاد إلى نابولى قاعدة ملكه وضم إلى ملكه جزيرة صقلية أيضاً ، وتعهد للنمسة في معاهدة سرية بأن لا يعقد حلفاً مع أية دولة أخرى ، ولا يمنح لرعيته أكثر من الحقوق الممنوحة إلى لبارديه وفنيسيه . وعلى الرغم من هذه النتائج المحزنة فإن الأحرار الطليان لم يقطعوا رجاءهم في استقلال إيطالية ؛ وقد رأينا كيف أنهم في فترة من الزمن يملقون آمالاً على مورات

في تحقيق هذا الرجاء ؛ وحين انسحب هذا من الميدان فإنهم وجهوا
أنظارهم نحو الأسرة الملكية في ييمونته التي تتبوأ العرش في
تورينو . وكان ملكها الأمير الوحيد الذي ينحدر من أصل إيطالي
من بين أمراء إيطالية . فراح الوطنيون يحلمون في تأسيس دولة
إيطالية في الشمال تجمع بين ييمونته ولبارديه وإيلات الروماني ،
ولم يفكر هؤلاء وقتئذ في الوحدة الإيطالية الشاملة ، وإنما كان
البعض منهم يرى أن الوقت الذي يتألف منه اتحاد إيطالي من الدول
الإيطالية الثلاث : دولة إيطالية في الشمال ودولة البابا في الوسط ،
ودولة نابولي في الجنوب ، سيأتي فيما بعد .

نتائج مؤتمر فينا

لقد جزأ مؤتمر فينا إيطالية إلى ثمانية أجزاء وهي : مملكة
ييمونته ، والإيلات النمسية في الشمال ، ودويلات الكنيسة
ودوقيات طوسكانه ومودينه وبارمه ولوكا في الوسط ، ومملكة
نابولي وصقلية في الجنوب . وقد أعطيت (بارمه) إلى الأميرة النمسية
(ماري لويز) أرملة نابليون ، وأعطيت (لوكا) إلى الأميرة ماري
لويز البوربونيه — وكانت تحكم (بارمه) قبل الثورة الفرنسية .
أما الدويلات الأخرى فقد أعيدت إلى أصحابها القدماء باستثناء
فينيسيه وجنوه .

ولما عاد الملك فيكتور عمانوئيل إلى عاصمة مملكته في تورينو

استقبله شعبه بحماسة ، ومع أنه كان يتصف بخلق نبيل وكان طيب القلب حسن النية ، إلا أنه كان يكره كل تجديد ، ويعتبر كل حركة إصلاحية بذرة من بذور الثورة التي كان هو عدوها الألد ، ولذلك فإنه قضى على كل ما خلفته الثورة من أثر برفض جميع القوانين التي وضعت حينما كان منفيًا عن البلاد ، ولم يعترف فضلاً عن ذلك بأى موظف لم يكن مسجلاً في سجل الموظفين قبل خروجه من بلاده ، ولكنه حين لقي مقاومة سلبية من شعبه اضطر إلى التساهل وإغماض العين عن بعض القوانين ، والموافقة على بعض الاصطلاحات ، وأسس مجلس الإيالات ، واحتفظ ببعض الموظفين من العهد الإفرنسي ، وأدخل (بروسبير وبالبو) في الوزارة ، وكان هذا الوزير من الإداريين القديرين ، فأصبح من المتوقع القيام بإصلاحات جديدة . ولكن عودة اليسوعيين أثارت انتقادات مرة ضد الحكومة ، لأنها بذلك استمرت على الجمع بين مساوىء العهد القديم كالاعتساف في الحكم وسوء الشرطة السياسية ، وبين نقائص الحكم الإفرنسي الجديد كالمركزية في الحكم .

أما في لمبارديه وفينسيه فقد فرح أكثر الناس بعودة التمسويين ظناً منهم بأن التمسويين سيؤلفون منها مملكة وسيقيمون مجالس إدارية قد تنقلب في المستقبل إلى مجالس تمثيلية . أما القانون الجديد فسيسن ملأماً لسجاياء الطليان وعاداتهم كما وعد مترینخ ، بيد أنه مرعان لما رأى اللبارديون أن كل هذه الوعود لم تتعد

حدود القول ، فأصبح القانون النموسى نافذاً ، وأسندت المناصب العالية إلى النموسيين والتيروولين ، وساءت الأحوال ، وفشا الجهل حتى أن إمبراطور النمسة صرح بأنه لا يرغب في أناس متعلمين ، وإنما يريد رعايا صادقين ومطيعين . وحدث عن خشونة النموسيين ووقاحتهم أمور ، فكشف كل ذلك الستار عن نيات الحكومة الجديدة نحو رعاياها الطليان .

أما في طوسكانه فكانت حركة الارتجاع خفيفة الوطأة ، إذ لم يحدث تغيير ما في المؤسسات المدنية التي أنشأها نابليون بدلاً من نظامها اللامركزي ، وقد أدرك أولو الأمر في هذه الإمارة ما طرأ على العالم من تطور وتحرر ، حتى قيل إن الدوق كان على استعداد لقبول مجلس منتخب على أن يحتفظ لنفسه بحق تصديق القوانين ورفضها ، ثم أعيدت بعض أملاك الرهبان إلا أنه لم يسمح مطلقاً بعودة اليسوعيين كما وقع في لمبارديه .

وفي روما عاد (كونسالفي) ممثل البابا في مؤتمر فيينا ظافراً في مهمته ، فتولى رئاسة الحكومة ، وكان مقتنعاً بأهمية التطورات التي طرأت على العالم ، وميلاً إلى الأخذ بالإصلاحات ، فأراد أن يقوى الدولة التي أنقذها بإدارة لا مركزية وإصلاحات معتدلة ، ورغب في أن تحكم الدويلات البابوية حكماً صالحاً وأن يرى أهلها مرفهين ، وصرح أيضاً بأن على البابوية أن تعترف بالعوادات والأفكار الحديثة والآراء الجديدة التي أحدثتها علم الاقتصاد

السياسى وبثها ، وكان يطمح إلى إيجاد إدارة تتبع البابا مباشرة بعيدة عن سيطرة المطارنه والأهلين معاً ، ومع ذلك فإنه لقي معارضة شديدة حينما حاول إصلاح القانون وتشجيع التعليم .

أما فى نابولى فقد تظاهر الملك فرديناند بأنه أكثر أخذاً بمبادئ الحرية من مورات ، وتأهب لنشر بيان يعد فيه الناس بالدستور الجديد ، ولكنه حين علم بسقوط خصمه مرغان ما تنصل من وعوده ، وعاد المهاجرون ورجال الألكيروس يطالبون بحقوقهم ، ثم استلم المهاجرون أملاكهم ولقيت صقلية التى التجأ إليها الملك أيام نكبته كل جحود منه فيما بعد ؛ وكانت الجزيرة تعز بدستور يمنح الأشراف بعض الحقوق — حصلت عليه بعد تعز جدال عنيف وبتدخل قائد الحامية الإنجليزية . ورغم أن الملك أقسم عىن المحافظة على الحريات الممنوحة وكفلت إنجلترا ذلك أديباً ، فإنه لم يرتح إلى وجود إدارة دستورية بالقرب من مملكته ، خشية سريان مبادئ هذه الحريات ، وعملاً بالمعاهدة التى عقدها مع فينا فإنه أوقف الدستور الصقلى وألحق صقلية بمملكة نابولى وألغى الجيش والراية الصقليين .

ذكرنا فيما تقدم خلاصة ما أصاب الدول الإيطالية من تبدلات بعد مؤتمر فينا . وعلى الرغم من أن هذه التبدلات تحمل فى باطنها الآراء الرجعية إلا أنها لم تكن شديدة القسوة . وإذا استثنينا فرديناند ملك نابولى فإن الأمراء كانوا بصورة عامة صالحين وذوى

رغبات حسنة . ومع أنهم كانوا بعيدين عن فهم روح العصر الجديد فإن نفوسهم كانت تنوق إلى رؤية رعاياهم سعداء ، وعليه فإن الإدارة في حكومات المقاطعات قد تدرجت من حسن إلى أحسن ، ومع ذلك فقد ظل رجال تلك التبدلات يعتبرون القانون الإفرنسي من العوامل الهدامة لدعائم الأخلاق التي تستند إليها الهيئة الاجتماعية ، ولاح لهم أن القانون المذكور قد أضعف الدين وأضر بروابط الأسرة ، فراحوا يطالبون ملحين بفسخ الزواج المدني وإلغاء قانون الطلاق وترك أمر التعليم إلى الإكليروس . فأعدت العدة لأن يكون التعليم الإجباري بموجب تعاليم الكثلكة ونظراً إلى الريبة فيما تبثه الجامعات فإنها روقت من قبل الشرطة . واتخذ الأمراء دوق (مودينه) قدوة لهم في أعمالهم وقد كان هذا الأمير في الحقيقة من أفضع المستبدين في إيطاليا الحديثة ، يخشى النتائج السياسية التي قد تنشأ من التعليم ، واعتبر المدرس الذي يث في تلاميذه المبادئ التقدمية الحرة من أكبر المذنبين وطالما صرح « بأن الأحرار آثمون ، علينا أن ندعو لهم أن يتوبوا وأن نجازي غير التائبين منهم » .

بيد أنه مهما أعد للحركة الرجعية من عدة فإنه كان مقدراً لها أن تصطدم بجميع المستنيرين من رجال الرق والتقدم في الأمة . أما طبقة التجار التي أدركت ما بلغت قوتها في العهد الإفرنسي فقد رأت ما أصاب تجارتها من فشل من جراء المكوس الجركية

التي وضعت بين دولة ودولة أخرى . أما الجيش فقد كان متشبهاً
بالأفكار الديمقراطية ، وكان دائم الانجذاب إلى طريقة نابليون ،
حاقاً من جراء ضياع الحريات الاجتماعية والترقيات التي نالها
الضباط الذين عادوا من المنفى ، وضاق ذرعاً بسيطرة النمساويين
الذين كثيراً ما كسروهم في المعارك ، فأخذت النظريات الحرة ومبادئ
الحكم الدستوري تنتشر ، وكان عملاء روسية في المدة القصيرة التي
تظاهر بها الإسكندر قيصر روسية يميله إلى الآراء الحرة يشجعون
المستنيرين على بث تلك النظريات . أما السياح الإنجليز فكانوا
ينقلون معهم مبادئ الحكم الحر فأخذ الناس يتتبعون بكل دقة
أخبار المجالس النيابية في إنجلترا وفرنسة وحركة الهيئات
(Hetaria) في بلاد اليونان .

وهكذا فإن حياة عقلية جديدة كثيرة النشاط قد دبت في
الشمال وفي الوسط ، وأخذ الجيل الحديث يقرأ مؤلفات
(الفيري^(١) وفوسوكولو^(٢)) وما ترجم من الكتب الواردة من
ألمانية وإنجليزية وأخذ يتطلع إلى البعث القومي المنشود ويتناقش
فيه على قدر ما تسمح به مراقبة السلطة ، ذلك كله دون أن

(١) الفيري — أول شاعر إيطالي في الأساة .

(٢) فوسوكولو — كاتب وشاعر إيطالي .

يكون له رأى ثابت فى كنه هذا البعث وحقيقته ، وأصبح الأحرار
البائسون والموظفون الذين فقدوا وظائفهم والضباط الذين أضعوا
مناصبهم وجنود الجيش الكبير (جيش نابليون) ينتظرون بفارغ
الصبر عودة أيام الحرية التى بزغ فجرها زمن نابليون ، وهكذا الأول
مرة منذ زمن حزب جلنى (Guelfe)^(١) ظهر تشكيل جديد بزعامة
جمعية الكاربونارى أشبه ما يكون بالأحزاب القومية .

(١) حزب جلنى — الحزب الإيطالى القديم الذى يؤازر البابا ويعارض
حزب جيبلين وهو الحزب الذى يناصر الإمبراطور .

الفصل الثاني

جمعية الكاربوناري

كانت جمعية الكاربوناري تشبه في قواعدها ومراسمها تشكيلات الماسونية في إيطاليا إلى حد ما ، إلا أنها كانت ذات أهداف سياسية معينة ، وكان أعضاء الماسونية كثيرين وذوى نفوذ في إيطاليا الجنوبية ، وتأسست جمعية الكاربوناري من الجمهوريين الذين التجأوا إلى منطقة جبال البروزة وكابريه لينجوا بأنفسهم وليكونوا بآمن من يوسف بوناپارت (أخى نابليون) وقد انضم إليهم رجال آخرون ، وكان الدافع الوحيد الذى دفعهم إلى ذلك كرههم للحكم الإفرنسى ، ولكن يصعب القول بأنهم كانوا جمهوريين أو ملكيين ، وقد شجعهم فرديناند ملك نابولى واتخذهم حلفاء له ضد الإفرنسيين ، وسمى مورات فى السنوات الأخيرة لاستمالتهم إلى جانبه فلم يفلح وعجلت معارضتهم إياه بسقوطه .

ولما عاد فرديناند إلى نابولى كان أول عمل قام به أن اضطهد الذين ساعدوه على العودة إلى عرشه . فتولى وزيره (كانوزا) رعاية الكليدريارى - الجمعية المخاصمة للاحرار - وقد بلغ اضطهادها

إياهم درجة حملت النمسة رغبة منها في الاحتفاظ بحكومة متساهلة على الإيعاز إلى فرديناند بأن يحل تلك الجمعية . وانتشر الكاربونارى في جميع أنحاء إيطاليا الجنوبية ، ومما ساعد على إيجاد أنصار لها من مختلف الأحزاب تعاليمها الديمقراطية الاشتراكية وزعتها المسيحية . وقد اتخذ أعضاء الكاربونارى لهم مثلاً أعلى ، وكان زعماءهم ينشدون بعث الهيئة الاجتماعية بمثلاً جديداً ، وبث مذاهب الاشتراكية جامعين بين التصوف المسيحى وبين فلسفة القرن الثامن عشر ، فادعوا بأن المسيح كان أول ضحية من ضحايا الطغاة ، وكانت شارة الصليب تتوج مجالس الكاربونارى ، وكانوا خاضعين للأوامر الدينية والبابا . ولاح لهم في وقت ما أن يقيموا كنيسة كاثوليكية مجددة يقولون هم قيادتها ، وكانت تعاليم منهجهم تتطلب منهم التخلق بالأخلاق الشديدة الصلبة ، حتى إذا صدر من عضو ما أعمال تخالف الأخلاق أو تخل بالشرف عوقب عقاباً صارماً وعليه ، فإنه لا يجوز لأى شخص أن ينتمى إلى الجمعية إذا كان سيء السمعة ، وكان من الصعب معرفة اتجاههم السياسى ، على أنه لا شك في إخلاصهم للحرية وكرههم الشديد للاستبداد . ويلوح من شرح آراء زعمائهم أنهم كانوا يرمون إلى الجمع بين الإمبراطورية الرومانية ، وشبه الاشتراكية الديمقراطية التى بشر بها جان جاك روسو ، فتراهم يحلمون تارة باتحاد إيطالى برئاسة البابا ويتوقفون تارة أخرى إلى الوحدة الإيطالية ، على أن تكون روما عاصمة لها .

وكان يدير هذه التشيكلات المتنوعة محفل أعلى اتخذ روماً قاعدة له ، وكان لهذه التشيكلات هيئات عدلية تفرض عقوباتها التي تصل إلى حد الموت أحياناً ، وكانت قوانينها المستقلة وعقوباتها الصارمة أدعى إلى ثقة الشعب واحترامه من قوانين الحكومة التي لا تحكم إلا بالظلم والاستبداد . فانتشر (الكاربوناريون) من نابولي إلى الشمال وأخذ هؤلاء بالاشتراك مع فرسان جلتي وأعضاء حزب أدلني Adelfi في ييمونته وبارمه وحزب الاتحاد اللباردي يدبرون المؤامرة الكبيرة التي هيأت ثورة ١٨٢٠ — ١٨٢١ . ولقد تجلت بوادر هذه الحالة الروحية الجديدة لأول مرة في لمبارديه في مظهر اجتماعي وأدبي ، فقد أخذ استياء الشعب يزداد في الإيالات الخاضعة للنمسة ، ولكنه لم يتعد المظهر السلبي ، واقتصر العمل على الحزب المؤلف من الأشراف والبورجوازيين لاسيما في ميلانو وفي (برسيه) . وكان (كنفالونيري — Canfalonieri) رئيس هذا الحزب يجتمع بأحرار فرنسة وإنجلترا . وتسربت الآداب الرومانتيكية في إيطاليا فأسس الحزب مجموعة (كونجلياتورة — Congliatora) بإدارة الشاعر المحبوب (سيلفيوبليكو) ثم اندفع الحزب بعد ذلك إلى المؤامرة حتى فضجت واختمرت في الجنوب لاسيما في نابولي لأن حكم فرديناند فيها كان فاسداً استبدادياً . ومع أن القوانين فيها قد اقتبست أحكامها من المجلة الإفرنسية ، إلا أنها كانت تنفذ تنفيذاً

لا يتفق والنصوص ، وكان الناس لا يعتمدون على الحكومة ولا يشقون بها ، وشجعهم على ذلك أن فرديناند كثيراً ما كان ينقض وعوده ؛ ثم بدأ القرويون يتدمرون من ظلم الأشراف ، وقد أهين الشرف القومى ببقاء جيش الاحتلال النمساوى فى البلد إلى تاريخ ١٨١٧ ، وغدا القضاء ألعوبة بيد الأغنياء ، وزاد تدمير الناس واستيائهم بما أصاب الناس من فقر ؛ وأدى السلم إلى فتح أبواب إيطالية أمام التجارة الأوربية ، فزاحت البضائع الأجنبية المصنوعات الوطنية فضعت صناعة الأقطان والمشروبات ، فضلاً عما أصاب تجارة الحبوب والزيت من الكساد من جراء تدخل الحكومة ، وانتشر القحط وعمت الأمراض فى البلاد ، وأخذ الناس يلعنون الحكومة ويصبون عليها غضبهم . وطبيعى وقد بلغت الحال إلى ما وصفنا بسبب ضعف الحكومة وفسادها مما أدى إلى استياء الناس وتدميرهم أن تنشط المؤامرات ، وأن يوشك الكاربوناريون أن يسيطروا على البلاد إذ أخذ المستاءون على اختلاف طبقاتهم ينضمون إليهم ، وكان أفراد الجيش من أول المنضمين إلى الكاربونارى لحرماتهم الامتيازات التى كانوا يتمتعون بها ، ولما شاهدوه من محابة للمنفقين الذين عادوا إليه . وانضم إليهم القضاء مكرهين وبذلك أخذ عدد المنتمين إلى جمعية الكاربونارى يزداد يوماً فيوماً إلى أن بلغ عشرات الألوف ، حتى أن قوة الميليشيا فى الإيالات التى يبلغ عددها خمسين ألفاً أصبحت فى قبضة

الكاربونارى؛ وقوة المليشيا هذه قد نظمها ضابط كالابرى يدعى (جيجليلمو بيه) Guiglieimo Pepe بنمية قمع الشقاوة ، وبما أنه كان عضواً فى جمعية الكاربونارى فقد استعد لاستخدام هذه القوة فى الأغراض السياسية التى تعمل الجمعية فى سبيلها .

وكادت المؤامرة التى دبرها لاختطاف عاهل النمسة ومترنيخ^(١) تنجح لو لم تحدث ثورة عسكرية . وأراد فتيان من ضباط الخيالة (موريللى وسالفانى) أن يقلدا الثورة التى حدثت فى أسبانية ، ففرا مع كتيبة خيالة من نولا ، وسارا نحو (آفلينو) وأعلننا عزمهما مع قوتيهما مطالبين بملك ودستور . وسرت الثورة فى خلال ثمان وأربعين ساعة إلى (كوتبينانا تاو باريليكاتا) ، والتحقّت عدة كتائب مع بيه إلى صفوف الثائرين ، وكان بيه على وشك أن يقوم بالهجوم لو لم يسارع الملك إلى منح الدستور . ولما كانت جمعية الكاربونارى لا تثق بالملك ، فقد طلبت إليه أن يمنح البلاد الدستور الأسباني نفسه ، ذلك الدستور الذى ينص على تأليف مجلس واحد يراقب أعمال الحكومة وينحاسبها على الصغيرة والكبيرة ، ففعل الملك مضطراً وقد رحب الشعب بهذا الدستور وهلل لابن الملك (فرنسوا) الذى اندمج فى الحركة وتبناها بعد أن

(١) مترنيخ — رئيس حكومة النمسة فى حوب نابليون وقد أصبح بعد القضاء على نابليون الرجل المسيطر على سياسة أوربة مستفيداً من أحكام الحلف المقدس .

نودى به (وصياً) ، وقد أقسم أن يدافع عن الدستور بدمه .
وصرح الملك بأنه سعيد إذ استطاع أن يمنح ذلك في حياته ، وأقسم
بالإنجيل بعين الولاء للدستور ، وأقصى الوزراء القدماء عن العمل
وعين بديلاً عنهم وزراء من عهد مورات كانوا من الأحرار إلى حد
ما ، ولكن هؤلاء الوزراء لم يكونوا ممن ألفوا شعور الشعب فلم
يثقوا بالكاربوناريين المتشبعين بالأفكار الديمقراطية أكثر منهم
وكان (بييه) الوزير الوحيد من بينهم يمثل الحزب الذي قام بالثورة ،
وظل الكاربوناريون يؤلفون حكومة داخل حكومة ويسيطرون
على قوة المليشيا ، وعلى الهيئات المحلية ، فلا تستطيع المحاكم أن
تتخذ الإجراءات ضدّهم مما حدا ببييه نفسه إلى التفكير في إلغاء
تشكيلاتهم بالقوة .

أما في صقلية فقد ازداد الموقف الحرج تأزماً بسبب الثورة
واشتد سخط الصقليين لضياح استقلالهم وخنيانة الملك وخضوعه
المشين للنمسة ، وكان لذهاب الحامية الإنجليزية تأثير مباشر في
هبوط العملة النقدية ، وعلى الرغم من هبوط الأسعار فإن الترويين
لم يظفروا بتخفيض في الضرائب ، واشتدت الفاقة الناشبة من
سوء الحالة الاقتصادية ، وبلغ من شدة سخط الناس على سيطرة
نابولي أن تنامي الناس اختلافاً بينهم ، واختفت الفروق العميقة التي
كانت تبعد الطبقة المتوسطة عن الدهاء في القسم الأعظم من الجزيرة .
وكان الاستقلال عند الأشراف يعني عودة عهد الإقطاع ، والحصانة

تجاه القوانين ، واستغلال الأرض بإرهاق الفلاحين ، بينما كان الدهاء في المدن يفهمون من كلمة الاستقلال النهب ولذلك فإنه لم يكن بين الناس سوى أفراد قلائل من أحرار سنة ١٨١٢ يرون أن عودة الحكم النيابي هي السبيل إلى الرقي والإصلاح .

وشاع خبر الثورة في (باليرمو) عاصمة صقلية في يوم عيدها الديني ، فتقبل الجمهور منح الدستور الأسباني بحماسة ، حتى ظن البعض أن النابولين والصقليين سوف ينسون أحقادهم ويؤلفون جبهة متحدة للكفاح ضد الاستبداد ، غير أن الأشراف كانوا يرون في الدستور الأسباني ضياعا لنفوذهم ، فضلا عن أن البعض من الأحرار قد انضم إليهم ، مطالبًا بالانفصال عن نابولي أو منح الحكم الذاتي ، وهكذا فإن أمل المتفائلين بالتفاهم بين نابولي وصقلية قد خاب بإعلان الاستقلال والعودة إلى دستور سنة ١٨١٢ ، وثار الدهاء وهدموا دار القائد وضربوا دوائر الجباية ، وأصبحوا أداة بيد الأشراف . وأقنع هؤلاء نائب الملك بالموافقة على تسليم الدهاء ، وأوشك الجنود أن يتضامنوا معهم إلا أن القادة خشوا العاقبة فحالوا دون ذلك ، وقد نشبت بين الجنود والدهاء معركة أسفرت عن خسارة الجند ، وفتحت على أثر ذلك أبواب السجون ، وانضم المجرمون إلى العامة ، وشرعوا ينهبون المدينة ويقتلون الناس على غير هدى ، حتى اضطر الأشراف إلى الاتفاق مع رؤساء النقابات الصناعية ليحولوا دون النهب ، إلا أن مساعيهم ذهبت

أدراج الرياح ، ولم يستطيعوا أن يعيدوا الهدوء إلا بعد أن جندوا من المجرمين والعاطلين سرايا ، فأصبحت ناصية الحكم بيد عصبة من الأشراف والفوضويين ، وخشى الأحرار من جهة أن يصبح استقلال صقلية العوبة بيد الدول الأجنبية ، وأن يظل المجلس النيابي تحت سيطرة الأشراف ، ورأوا من جهة أخرى أن الانضمام إلى نابولي من شأنه أن يجعل نواب صقلية في مجلس نابولي أقلية . من أجل ذلك جذبوا أن تقوم حكومة من الأحرار بالإصلاحات التي سبق أن رفضها الملك ، بينما ظلت مسينا أكبر مدينة في شرق الجزيرة موالية لنابولي ، وارتأى الموظفون والطبقة الوسطى في وسط الجزيرة وفي غربها رأى الأحرار في عاصمتها ، وأدى هذا التباين في الآراء إلى أن تصبح الجزيرة ساحة قتال دام بين أنصار الدستور الأسباني وبين الدهاء الذين راحوا يدافعون بحجارة عن دستور سنة ١٨١٢ بسبب كرههم الشديد للأشراف وميلهم نحو أهل باليرمو .

أدت هذه الحوادث إلى هياج وسخط في نابولي ، ولاح للأحرار أن الحركة الرجعية في صقلية قد شجعتها الأشراف ، ولذلك طالبوا باتخاذ التدابير اللازمة لقمع الثورة ولكن الحكومة ترددت في الأمر ، وأراد الملك أن يصطاد في الماء العكر فوعد الصقليين بدستور ١٨١٢ ، وشجع هو ووصيه الأشراف على المطالبة بالانفصال ، ثم منح الوصي بموافقة الوزراء أهل الجزيرة حق تأسيس

مجلس نيابى على شريطة أن يقبله أهل الجزيرة بالإجماع ، وفى الوقت نفسه أوفد أخو الوزير (بيه) على رأس سبعة آلاف جندى إلى الجزيرة لإخضاع الانفصاليين ولمساعدة الحكومة على التخلص من وعدها . ولقيت القوة الموفدة مقاومة شديدة ، حتى تخرج موقفها لو لم يسأم القابضون على زمام الثورة من كلا الفريقين الفوضى والدمار اللذين أصابا الجزيرة ، فطلب أحد الأشراف من الشعب الخضوع ، وقبل طلبات القائد بتعديل على أن تبقى الجزيرة تابعة للتاج ، وأن تقبل الدستور الأسباني . وبهذا خضعت الجزيرة ولكن عين مترینخ الداهية المنسوى لم تنم ؛ فرأى فى ثورة نابولى هداما للبناء الذى شيده وخروجا على السياسة التى وضعها بعد مؤتمر فينا ، ولذلك عقد النية على أن يخنق الدستور الجديد قبل أن يشب . وبلغت الحماسة فى النابوليين من جراء انتصارهم درجة لم يروا معها الخطر الذى كان يهددهم ، فدفعوا الضرائب قبل آجالها وانحرف المتحمسون منهم فى سلك الميليشيا .

واجتمع المجلس فى ١ تشرين الأول فوعد الملك المرة الثانية بأن يحترم الدستور وكانت أ كثرية المجلس من المعتدلين الذين انتخبوا من الطبقة الوسطى ومن ذوى المهن الحرة ، وكانت رؤوس هؤلاء مملوءة بالأفكار الإصلاحية ، إلا أنهم كانوا محرومين من التجارب ويرجعون الخطب على العمل ، ولم يفكر أحد منهم فى تهئية البلاد لصد الغزو الخارجى . أما الكاربوناريون فيلوح أنهم

اعزّموا إما التهديد وإما أن يقوموا هم مقام البرلمان ، فاستيقظ الحزب الرجمى من ذهوله وتحفز للعمل ، وقد اعتاد الناس أن لا يثقوا بكلام الملك . وكانت هناك عدة أسباب تدل على أن الملك يتآمر ، وأن الوزارة أصبحت ألعوبة فى يده . وكانت باكورة أعمال المجلس أن رفض التصديق على معاهدة القائد بيه التى تنظم أمور صقلية ، والتى تنص على أن يقدم الصقليون عشرة آلاف رجل للدفاع المشترك ، وعلى الرغم من احتجاج القائد على هذا الرفض ، فإن الوزارة قد ارتاحت إليه ، لأنه ساعدها على أن تتملص من وعدها فعينت قائداً آخر وُفق فى أن يقبض على ناصية الجزيرة بالتدابير الصارمة . وكان من أثر ذلك أن اغتاز الصقليون وتآهبوا لانتهاز الفرص وأخذ الكاربوناريون فى الجزيرة يتحفزون للثورة ويستعدون لها مما اضطر نابولى إلى إبقاء قوة حامية تتألف من سبعة آلاف من خيرة جنودها فى الجزيرة .

وراح المجلس يهاجم الوزارة حتى اضطرت إلى أن تلقى بنفسها فى أحضان الملك ، وكان الملك يعلم أن النمسة لا ترضى أبداً بالثورة وبالنظم الديمقراطية ، فإذلك حدث حين استدعاء ملوك الحلف المقدس إلى (تروباو) لحضور الاجتماع المؤجل فى لايباخ أن طلب من المجلس الموافقة على ذهابه وهدده بالحل إن هو لم يوافق . فلم يبق أمام المجلس تجاه هذا التهديد إلا أن يختار أحد الأمرين : فإما أن يطلب مساعدة فرنسة وتمهدة الحلفاء بموافقتهم على تأسيس

مجلس الأعيان وتوسيع سلطة الملك ، وإما أن يخلع الملك وينصب ابنه محله وبذلك يعلن الخصومة على النمسة . فظل المجلس مترددا بين الأمرين ، ومع أن الوزير يبه صوت للأمر الثاني فإن الكاربناريين لم يكونوا يريدون أن يغيروا شيئا في أحكام الدستور . أما الملك فإنه بعد وصوله إلى تروباو رفع القناع عن وجهه ، وأخبر المجلس أن الحلفاء قد قرروا إلغاء الدستور ، وأنه نزل عند رغبتهم . وأيد ذلك ، واستطاع مترينخ أن يحصل على موافقة الدول على إرسال قوة نمسوية لتأييد الحكم المطلق ، ولما اطلع المجلس على ذلك اعتزم المقاومة واستعد للدفاع بكل قوته ، وكان لدى الحكومة حينئذ أربعون ألفا من الجند النظاميين ومثل ذلك من قوة المليشيا . وكان النابوليون يجهلون أن ييموتته كانت على وشك أن تثور ، وأن فكرة الثورة قد اختمرت في إيلات الروماني والمارك ، وبذلك كانت جميع الظواهر تدل على أن الكفة الراجحة بجانب النابوليين ، لاسيما إذا أحسنوا المقاومة . وكان الشعب يريد الحرب لكن الأمور لم تسر وفق الرغبة فيه إذ كان الوصي (ابن الملك) يلعب على الحبلين ، وقد شجع وهن الحكومة الحزب الرجعي على العمل ، وكان الجيش لا يثق بقادته ولم ترسم في البدء خطة للدفاع .

أما النمسيون فاجتازوا نهر (بو) في نهاية كانون الثاني ، وتقدموا رويدا رويدا نحو الجنوب وكانت قوة نابولي تتفاوت بين

(٤٠٠٠٠ - ٥٠٠٠٠) من النظاميين والمليشيا ، فانقسم الجيش إلى قسمين القسم الأول بقيادة (كرّسكوسا) والثاني بقيادة (بييه) وكانت الخطة المثلثي أن يظل القسمان في حالة الدفاع . ولما علم (بييه) بأن (كرّسكوسا) أخذ يفاوض العدو بالاتفاق مع وزير الحربية ترك خطة الدفاع وهجم على الجيش النمساوي ، وبعد معركة استمرت سبع ساعات اضطر إلى الانسحاب ، فتحطمت معنويات الجنود ، فأعلن الملك بأنه سيقتل كل من يقاوم ويصادر أملاكه ، فانتشر الذعر بين الصفوف ونشبت قوات الجيش ومالت قوات الحرس إلى جانب الملك . فاضطر المجلس إلى أن يترك الميدان ويلتجئ إلى رحمة الملك ، وهكذا دخل النمساويون نابولي في ٢٣ مارت بدون خسائر .

نشبت الثورة في ييمونته بعد اندحار جيش نابولي بثلاثة أيام . وكانت جميع قوات المحافظين قد تألفت دون مساعي (بروسبرو بالبو) في الإصلاح ، وأمسى الجيش بيد الرجال الذين حاربوا النمسة في معركة (أوسترليج) فظلوا يعتبرونها عدوة ، وأصبحوا يرون أنه على ييمونته أن تختار أحد الأمرين . إما الاحتلال النمساوي ، وإما عرش إيطالية . وانضم الكاربوناريون إلى المستائين وكان الملك فيكتور عمانوئيل يحقد على الحزب النمساوي ، الأمر الذي كان يزيد النار استعاراً أضف إلى ذلك أن سفيره في روسية (دى مستر) كان يدبر الدسائس في بطرسبرج في سبيل تأسيس مملكة في شمال إيطالية

بمحاية روسية . لم يخطئ أعضاء جمعية الكاربونارى كثيراً حينما فكروا في أن يتأسس الملك فيكتور عمانوئيل الحركة ويجمع حول رايته القوميين في جميع أنحاء إيطاليا . وكان المتآمرون يميلون إلى إنجاز الإصلاحات قبل القيام بالحركة ، ولذلك فإن أكثرهم قرروا المطالبة بالدستور الأسباني ، ولكي يظفروا بعطف الملك على الحركة فكروا في اشتراك ولي العهد الأمير شارل ألبرت في مسماهم . وقد نشأ هذا الأمير الفتى البالغ من العمر اثنتين وعشرين سنة في باريس وانخرط في الجيش الفرنسي ونال فيه مرتبة كونت الإمبراطورية ، وكان رجلاً شجاعاً شغوفاً بالسلاح متكبراً ولكن تنقصه الحماسة ، وكان الأمير الوحيد الحائر عطف الأحرار وقد تظاهر بميله إلى الإصلاحات وحبه للاستقلال وتشجيعه للأحرار ، واتصل برجال الكاربونارى رغم نفرة البلاط من الآراء الحرة والأفكار الحديثة ، وقد ولدت فيه ثورة نابولي الرغبة في قيادة الوطنيين وطرد النمساويين من إيطاليا وتوسيع حدود بيمونته .

وكانت خطة المتآمرين تتلخص فيما يلي : — أولاً — الحصول على الدستور الأسباني مهما كلف الأمر ، ثانياً — سوق الجيش إلى الحدود حالا ، ثالثاً — ضم قوات الشوار في ميلانو وبرسيه ، رابعاً — دحر الحاميات النمساوية فيهما ، خامساً — قطع طريق الانسحاب على النمساويين في نابولي .

وكانوا واثقين أن جيش بيمونته ظافر لا محالة ، وأن
المباردين سيعقدون مجلساً تمثيلاً لتقرير الانضمام إلى بيمونته .
ولما وقعت حادثة الاصطدام صدفة بين التلاميذ والجيش في
تورينو اشتد التوتر ، وفي شهر آذار سنة ١٨٢١ شاع خبر الاطلاع
على مؤامرة الأحرار مما اضطرهم إلى الشروع في العمل ، ولما
كانوا يرغبون في أن يساهم الأمير شارل البرت في الثورة فقد اجتمع
به زعماء المؤامرة ، والظاهر أنه وعدمهم بالاشتراك في العمل ، على
شريطة ألا يتجه العمل نحو مخاصمة الملك ، ولكن سر المؤامرة
لم يلبث يوماً واحداً بعد الاجتماع حتى أفشاه الأمير ، فأراد
المتآمرون في تورينو أن يرجئوا الشروع في العمل ، بيد أن حامية
(الكسندرية) التي كانت تجهل خيانة الأمير سارعت إلى الثورة ،
وطالبت بالدستور الأسباني ، ونادت بفيكتور عمانوئيل ملكاً على
إيطالية . وسار التلاميذ في العاصمة في مظاهرات يطالبون فيها
بالدستور ، ورفض ضباط الحامية مقاومة المتمردين والمتظاهرين ،
مما يحمل على الظن أن الحكومة نفسها كانت من أنصار الحركة ،
واتضح في الجلسة التي ترأسها الملك أن الملكة وحدها كانت
تعارض في منح امتياز للشعب ، أما الملك فبلى الرغم من وعده في
مؤتمر (لايباخ) ألا يتخلى عن سلطته المطلقة فإنه حين أئذرت
الحامية العسكرية بإطلاق النار على المدينة إذا لم يمنح الدستور أراد
تجنب الحرب الأهلية ، وأعلن تنزله عن العرش ولكن هذه

الحركة من جانبه اعتبرت ضربة موجة للثائرين الذين كانوا قد أظهروا ولائهم له ، كما أنهم أعلنوا للملأ حينئذ (أن الملك سيلبي نداء قلبه الإيطالي) ، وكان الملك قبل أن ينزل عن عرشه قد نصب الأمير شارل البرت وصياً إلى أن يصل أخوه (شارل فليكس) الملك الجديد الذي كان خارج إيطاليا .

استقالت الوزارة وأصبح الأمير الفتى من دون معين ولم يكن ممن يستطيعون تحمل تبعه الحوادث الجسام . وقد كان مخلصاً للأسرة السالكة من جهة ومرتبطة بالتأمرين من جهة أخرى . وكان أمامه قبل كل شيء واجب خطير هو إنقاذ العاصمة من الفوضى ، وإنقاذ البلاد من الاحتلال الأجنبي ، وكان يدرك أن جيش ييموته لا يستطيع مقاتلة الجيش النمساوي . وعليه فقد تردد بادئ الأمر في منح الدستور ، فأخذت الحامية تهدده ، وأشار عليه الأشراف بالقبول ، فأذعن ومنح الدستور الإسباني مكرها . ويظهر أن مجرى الحوادث بعد ذلك قد حمسه إلى درجة راح معها يتحدث عن الاتحاد مع نابولي ، وعن الشرف القومي ، ولم يتردد في إظهار عطفه على الوفد للمباردي الذي طلب منه أن يتقدم بالجيش نحو لمبارديه . ولما بلغه الملك الجديد في إصرار وشدة أنه لا يعترف بأى امتياز منحه للشعب وأمره بعد ذلك بالجميـء إلى (نوفآره) هرب خلسة مع بعض رجال الحامية .

وكان أهل جنوة أيضا قد تحمسوا للثورة ، بيد أن فرار

الأمير شارل البرت جعل (كنفالونبيرى) وزير لمبارديه يتردد في العمل ، ولم يشأ المبارديون أن يقدموا على الحركة قبل أن يجتاز جيش ييمونته الحدود إلى بلادهم ، وبقيت العاصمة ساكنة ، وأخذ الأشراف يوجسون شرا من الدستور الأسباني . ولم تكن الوزارة الجديدة قادرة على بث الحماسة في النفوس ، وحاول (سانتاروزا) ولعله الوزير المتحمس الوحيد من بين الوزراء أن يشجع الثورة بالمهجوم وأخذ يقول : « انسوا الحزابات واركضوا نحو تسينا (النهر الذى يفصل الحدود بين لمبارديه وييمونته) ، فلمبارديه تنتظركم وسوف تتحرك فرنسا » ، ولم يجد هذا القول نفعا ، لأن الجنود فترت حماسهم ، وأخذت القطع العسكرية تنحاز إلى الجانب الملكى ، فأرادت الوزارة أن تنقذ الموقف بطلب وساطة روسية لتحول دون احتلال النمسة للبلاد . بيد أن الملك شارل فيلكس من جهة ، وحزب الأحرار فى الكسندريه من جهة أخرى لم يميلوا إلى أى تفاهم ، وكان من أمر ذلك أن اجتاز النمسيون نهر تسينا ، وتقدمت قوات الدستور نحو نوفاره ، ولم يخطر ببال هذه القوات أن القطعات الموالية للملك ستندمج إلى صفوف النمسيين لمقاتلتها . وهكذا تغلب الجيش النمسى بالاشتراك مع قوات ييمونته الموالية على قوات الدستور بالقرب من نوفاره ، ثم احتل النمسيون الكسندريه وجنوه . وبهذا فشلت الثورة فى الجنوب وفى الشمال .

وإذا كان النفور من آل بوريون ملوك نابولي ، والاستياء من الظلم والفاقة من أسباب الثورة والعوامل الدافعة إليها في الجنوب ، فإن نشوبها في الشمال يرجع إلى نزوع الأحرار لضم لبارديه إلى ييموتته والقضاء على الحكم النمساوي ؛ وترجع أسباب فشل الثورة في الجنوب إلى خيانة الملك والوصى وعزم الحلف الأوربي على قمع كل حركة تقوم ضد الحكم المطلق ؛ غير أن رؤساء الثورة أنفسهم لم يكونوا ذوي تجارب كافية ، ومع أن الكاربوناريين كانوا مخلصين في عملهم إلا أنهم سلموا القيادة إلى رجال لم يكونوا مؤمنين بنجاح الحركة ، وقد سيطروا على الحكومة لما شكوا في إخلاصها ، وكانت الحزازات الشخصية تعمل عملها بينهم في الخفاء ، ونخص بالذكر تلك الخصومة الشديدة بين بييه وكركسكوسا ، وذلك الاختلاف بين جمعية الكاربوناري وحزب مورات ، وإذا دلت الظواهر على أنهم يعملون لهدف واحد فإن الوقائع أظهرت أنهم يتحركون مختلفين .

أما في الشمال فالأسرة المالكة التي يجب أن ترأس الحركة وهي أسرة قومية لم تكن قوية الإيمان بالفكرة ، ومع أن الأمير شارل ألبرت كان يعتقد فكرة الوحدة إلا أنه كان فاقداً للحماسة ، متردداً بين الإخلاص للأسرة المالكة وبين العمل المجرد للفكرة . وكان الأشراف الحديثو النشأة يهدفون إلى تأسيس مجلس الأعيان ، كما أن أشراف لبارديه كانوا يطمحون إلى أن ينالوا بواسطة

بيمونتة الامتيازات القديمة التي رفضت النمسة أن تمنحها إياهم .
وأما الجيش الذي علمته حروب نابليون أن يتخذ نفسه حكماً في
سياسة الأمة فإنه لم يكن ليعبر أى اهتمام بالشعب . وأما رؤساء
الثورة في الشمال فمع أنهم يؤمنون بالوحدة إلا أنهم كانوا رجال
قول لا رجال عمل ، وكانوا متحمسين للحركة والاستقلال ، إلا أنه
كان ينقصهم إصابة الرأي والنظر البعيد ، فهاموا في أودية الخيال
وجهاوا شعور البلاد ، وأهملوا إعداد شعور الأمة إعداداً يكفل
النجاح .

أما الزعماء في الكسندرية فاختاروا لقب (جوتتا) للاتحاد
الإيطالي ، واتجه هدفهم السياسى نحو مملكة إيطاليا في الشمال ، وقد
أظهرت الثورتان ضعف الشعور بالوحدة والتضامن الصحيح في
العمل . ومع أن بعض رجال الثورة مثل سانتاروزا كان يتوقع جمع
القوى الوطنية في الشمال والجنوب ، وكان (منزوني) يرتل النشيد
الآتى : « أمة واحدة جسماً وقولاً وقانوناً وقلباً » فإن المتآمرين
في بيمونتة لم يجربوا نابولى بأهدافهم وخططهم ، وأجلوا حركتهم
إلى أن قمعت الثورة في الجنوب ، وكان لكل من بيمونتة ولبارديه
والرومانى ونابولى وصقلية سياسة خاصة لم يكن بعضها غريباً عن
البعض الآخر فحسب ، بل إنها كانت ذات أهداف متباينة ، وقد
يصطدم بعضها ببعض الآخر . فرجال بيمونتة ولبارديه كانوا
يتناقشون فيما بينهم حول أى من المدينتين — تورينو وميلانو —

يجب أن تكون العاصمة ، ورجال صقلية كانوا يكرهون أهل نابولي كل الكره ، حتى أنهم فرحوا بانتصار النمساويين ، وكان أهل نابولي يفضلون التخلي عن الغاية القومية على أن يمنح الحكم الذاتي إلى صقلية ، فضلا عن أنهم رفضوا دعوة وطني المارك لإشعال نار الثورة في ممتلكات البابا . فمن الواضح إذن أن حركة الكاربوناري كانت تسير في طريق خاطئ* ، ولم يكن للثورة في وادي بو إلا صدى ضئيل ، وقد لاحت بوادر المؤامرة في الرومانى حتى أن الشاعر الإنجليزي (بايرن) كان قد خزن السلاح في بيته لتجهيز الثوار به ، إلا أن الثورة فشلت في الشمال والجنوب ، وأصبحت البلاد ترزح تحت نير الظافر .

فسيق كنفالونيرى مع كثير من رفقائه إلى معتقل (سبيلبرج) في موارفيه ، حيث أخذ الإمبراطور فرانسو جوزيف يلعب بضحاياه لعب القط بالطيور الصريعة ، وأطلق مترنيخ العنان لدوق مودينه للانتقام من رعيته ، وطلب إلى فرديناند ملك نابولي أن يتظاهر بالحرية بمنح مجالس الإيالات بعض السلطات ، ومنح صقلية إدارة مستقلة خاضعة لنائب الملك . إلا أن الملك لم يلب الطلب ، وأخذ ينتقم من الأحرار في قساوة ووحشية ، فأقصى من الإدارة والجيش والمؤسسات الدينية جميع العناصر الموالية للأحرار ، فشهدت نابولي أفطع الظالم ، وعلى الرغم من أن النمساويين سعوا لإنقاذ الضباط الثائرين إلا أن الملك أبعد ثلاثين

منهم إلى جزيرة جعلها سجنًا ، فكانوا ينامون فيها على الأرض ويكابدون أسوأ معاملة حتى ماتوا فيها . ولم يكثف الملك بذلك بل استدعى اليسوعيين إلى مملكته ليساعده على إتمام العمل الوحشي الذي بدأ به . فأحرقت الكتب التي تحتوى الآراء الحرة ومنع استعمالها ، وفرضت مكوس باهظة على الكتب الواردة من الخارج ، وكان الوزير (مديجي) يعترف بأن من واجبه أن يترك الشعب في جهل مطبق ، وأخذت الحكومة تطارد الكاربوناريين ففر الأحرار إلى الجبال بأسلحتهم مؤلفين العصابات .

أما في بيمونته فسار الملك الجديد شارل فيلكس على أثر زميله ملك نابولي في حركة الارتجاج ، إلا أن تقاليد بيمونته الموروثة حالت بينه وبين الاندفاع في الطغيان الذي انغمس فيه فرديناند ، ولم يكن هذا الملك الجديد ظالماً بطبعه ولكنه كان يعتبر الثورة من أفظع الأعمال التي يجب أن يسحقها ، وكان يحكم حكماً استبدادياً بكل معنى الكلمة ، فارتاب في جميع الناس حتى في وزرائه ، وشعر بالقلق الشديد لأعمال المجددين . وكان لا يتردد في القول : « الملك هو الشخص الوحيد الذي منحه الإله القدرة على اختيار أحسن الوسائل لاستخدامها في سبيل سعادة رعيته ، وإن أول واجب للتابع المخلص ألا يتشكى أبداً » إلا أنه لم يكن متصفاً بالخلل التي تؤهله لأن يكون ملكاً عظيماً . وكان

الوحيد من آل صافويه الذى لم ينشأ من سلك الجندية ، فكره
أشغال الحكومة ومراسم البلاط ولم يكن لديه أصدقاء إلا
القليل .

وهكذا أصبحت ييمونته الحرة تروح تحت نير الاستبداد ،
وقد أهينت كرامتها القومية ببقاء اثني عشر ألفاً من الجند النمساويين
فيها محتلين إياها ، وانتشر الأحرار المبعدون تحت كل كوكب في
فرنسة وأسبانية وإنجلترا ومصر وأمريكية الجنوبية ، وأصبح
سانتاروزا يدرس اللغة في نوتنجام ، إلى أن مات بطلا فيها ،
ومع ذلك كله فقد بوش تنفيذ بعض الإصلاحات من لوائح بالبو
الإصلاحية الخاصة بالأمور العدلية ، ووجه اهتمام إلى الأمور
الزراعية وشجع المرسح ونشطت الآداب ، ثم انفصل شارل
فيلكس من أصدقائه النمساويين وأهل روما ، فاحتج على النمسة
لاحتلالها الكسندرية ، ومع أنه كان يشجعها على البقاء في نابولي
إلا أنه رفض دعوتها إياه إلى التعاون المشترك ضد الأحرار ،
وبهذا لم يضع الفرصة للظهور بمظهر الملك المستقل بآرائه .

الفصل الثالث

الأحوال الاجتماعية في إيطاليا

« ييمونته »

كانت مملكة ييمونته وليدة قرون عديدة ، وكان كونتات آل صافويه قد توصلوا إلى أن يملكوا هذه الدولة الثانية من دول إيطاليا من حيث السعة والتي ظفرت بموقع عال بين الممالك الثانوية في أوربة . وبما أن هذه المملكة الصغيرة واقعة بين فرنسا والنمسة ، فإنها كانت ساحة للحروب التي نشبت بين الملكتين العدويتين ، وقد استطاع بيت صافويه المالك بالسياسة الحكيمة أن يوسع حدود مملكته على حساب الملكتين المذكورتين ، بوقوفه دائماً بجانب المنتصرة منهما . فكانت ييمونته الدولة الوحيدة في إيطاليا التي احتفظت باستقلالها أيام التسلط الإسباني في القرن السابع عشر ، ووقفت إلى جانب إنجلترا ضد النمسة في بداية القرن الثامن عشر ، فأضافت إلى ممتلكاتها (الكسندرية) و (الميلينا) ثم انحازت إلى فرنسا فحصلت على إيالة (نوفاره) ، وانضمت إلى جانب فينا في حروب النمسة الوراثة فوسعت حدودها إلى تسينا . فلم تعقد معاهدة والحالة هذه إلا وضمت أرض إلى مملكة ييمونته .

ولما نشبت الثورة الكبرى في فرنسا كانت مملكة ساردينيا كما كانت تدعى حينئذ تحتوى على القسم الشمالى من إيطاليا إلى جبال الإبينى أى ساردينيا ونيس وصافويه .

ولم تكن هذه السياسة التى اختارها أمراء صافويه ترجع فى قواعدها ودوافعها إلى أى اعتبار غير منفعة البلاد ، وكان عليها عليهم موقعها الجغرافى الذى شجع ملوك بيمونته على أن يكونوا أوفياء ، كما وصفها أحد ساسة بلجيكة . وكان أهل البلاد كأمرائهم محاربين عنيدى ذوى رأى صائب لا يلتفتون إلى الآداب والفنون ، وكانت الزراعة فى حالة من التأخر ، أما الصناعة فكادت تكون معدومة . وكانت أكرثية الشعب لا تعباً كلية بالحرية السياسية أو الحرية الدينية ، فارتضت عن طيب خاطر حكم آل صافويه المسكرى والأبوى المطلق . وكان ملوكهم ذوى كفاءة نادرة شاعرين بواجباتهم ، وقد استطاعوا بفضل اختلاطهم برعييتهم فى الكفاح المديد للمحافظة على كيان البلاد أن يصبحوا من صميم الأمة . وكان البلاط نشيطاً بسيطاً ، وكانت الحكومة بوروقراطية نزيهة ولكنها جامدة تشتغل فى أمور تافهة أما النظام المالى فيها فكان من أحسن الأنظمة فى أوروبا وكانت تمت أوجه شبه بين هذه الدولة وبين دولة بروسية فى ألمانيا .

وكانت الحكومة تساعد التجارة وتشجع الصناعة الحديثة النساء ، وكان الملك يرعاها ، أضف إلى ذلك أن الحكومة كانت

تحمى الناس من تعدى الأفراد المرهق ، وتضع القوانين النافعة للترفيه عن الفقراء ؛ أما الحقوق السياسية والتقدم الاجتماعى فلم يعبأ بهما الملك ولا الشعب . وكان الناس فى هذه المملكة شأنهم فى أنحاء إيطاليا كلها ، هم وأملاكهم وشرفهم تحت رحمة الشرطة . وكان حق وضع القوانين نظرياً من صلاحية مجلس الأعيان أو المجلس الأعلى على نمط المجلس الفرنسى ، بيد أنه لم يكن لهذا المجلس المذكور شأن فى ذلك ، لأن أعضاءه يعينهم الملك ، وكان لمدينتى تورينو وجنوة هيئات بلدية ، ومع أن الإيالات كانت تدار من قبل حكومات إلا أنها كانت خاضعة للحكام العسكريين ؛ أما المدن فكانت تحت حكم قادة الحاميات . وقد عبر أحد أشرف ييموته عن هذا الحكم بالعبارة التالية « ملك يأمر وطبقة أشرف تساعد وشعب يطيع » وكان الأشرف كللكهم محدودى الفكر غير مسرفين ومتكبرين ، ومنهم تتألف الطائفة العسكرية ، وكانوا يتمتعون بامتيازات إقطاعية ويعيشون عيشة البساطة ويحكمون أتباعهم بيد صارمة ، ولكنهم غالباً ما كانوا يعطفون عليهم . أما أولاد الأشرف الصغار الذين لا يرثون بمقتضى القانون فيتولون المناصب العالية فى الجيش وفى الإدارة ، وكانوا يشتغلون بمجد وسمى ليحيوا حياة تليق بشرف أسرهم ومجد وطنهم . وأما جماعة الإكليروس فكانت خاضعة لسلطة الحكومة المباشرة ، فالملك يعين المطارنة ، ورغم أن الملوك كانوا موالين للبابا فإنهم لم يسمحوا

بأى تدخل فى امتيازاتهم فى هذا الشأن ، ومع ذلك فإن كابوس الإكليروس كان جاثماً على البلاد ، إذ استطاع اليسوعيون فى سنة ١٨١٨ أن يستعيدوا نفوذهم . وكان للمدارس التى أنشأوها وخرجت عدداً كبيراً من أولاد الأغنياء أثرها فى تقوية مركزهم ، ولم يسمح لليهود بالاستخدام فى الوظائف العامة ولا بالدخول فى الجامعات . وبلغ امتداد نفوذ الكنيسة حداً كان معه الوزراء يراعون أيام الصوم خوفاً من العزل ، وكانت الجامعات توصد أبوابها أسبوعاً مرتين فى السنة للقيام بالواجبات الدينية ، وعلى الرغم من هذه الصرامة الدينية ، والمراسم الكثيرة التى تجربها الكنيسة كانت مدينة تورينو أكثر المدن الإيطالية الشمالية دعارة .

ولم يمنع كون الإشراف وجماعة الإكليروس دعامتين لنظام الحكم فى ييمونته أن يكون الجيش إحدى الدعائم أيضاً ، وقد احتفظ ملوك ييمونته بجيش كبير لا يناسب سعة المملكة ، وكان الجيش والأسطول ، إباحياً فى التوسع أو رعاية للموقع الجغرافى ، يستنفدان من الميزانية ثلاثة أرباعها ؛ فاستطاعت هذه المملكة أن تجهز سبعين ألفاً من الجنود . وخلاصة القول إذن أن دعائم الحكم فى ييمونته هى الإشراف والإكليروس والجيش ، وهؤلاء مهمتهم تأمين ولاء الشعب بعقيدة دينية وملوكية مشتركة ، ولجعل ييمونته محترمة فى نظر جاراتها الطامعات ، وحسبنا لبنين

قوة هذه الدعائم أن نصف العاصمة تورينو كان ثكنات والنصف الآخر أديرة . هذا ولا يفوتنا أن نشير إلى أنه كانت في المملكة نقابات مؤلفة من الأساتذة والصناع تبث في الأوساط الصناعية روح التنظيم الصارم . أما الفرق بين الطبقات فكان شاسعاً ، وقد أدى الحكم الفرنسى الذى استمر من سنة ١٧٩٨ إلى سنة ١٨١٤ إلى رقى عظيم .

ولم يسمع الملك فيكتور عمانوئيل حين عودته وأخوه من بعده إلا أن يمنح بعض الامتيازات على كره منهما ، بسبب قوة تغفل الآراء الحديثة . ويبدو مما تقدم أن مملكة ييمونته كانت متأخرة اجتماعياً بالقياس إلى ممالك أوربة الغربية . وكان القضاء فى ييمونته مزيجاً من الحقوق الرومانية وحقوق الكنيسة ومن إرادات ملكية وعرف محلى وقرارات للمحاكم غير مدونة . وكانت إيالة جنوة تأخذ بالقوانين الإفرنسية المدنية والتجارية ، بينما كانت لإيالة (آوستر) تشريع خاص ، وكان لبعض المدن الصغيرة أيضاً عرفها وامتيازاتها الخاصة بها .

أما التعليم فى المملكة فكان متأخراً ، وقد أمر الملك شارل فليكس سنة ١٨٢٢ بفتح مدارس للأولاد فى كل مديرية ، إلا أن الجديدة منها لم تفتح قبل سنة ١٨٤٦ . أما المديرية الفقيرة فقد حرمت منها ، وكان معظم العمال والقرويين أميين ولم يشمل التعليم الابتدائى البنات إلا فى سنة ١٨٤٦ وذلك فى بعض

المدارس ، وكانت الحكومة تقوم بنفقاتها ، وكان التعليم فيها ناقصاً . وكانت المواضيع التي تدرس فيها قاصرة على اللغة اللاتينية واليونانية وبعض العلوم الطبيعية ؛ أما التاريخ — واللغات الحديثة فلم تكن تدرس فيها . وبكاد الرهبان يكونون وخدم المعلمين والأساتذة ، وكان همهم أن يلقنوا التلاميذ الطاعة العمياء ، ولكن الأذكياء من التلاميذ كانوا ينجحون إلى العصيان أو يندفعون إلى اليأس . وقد أراد الوزير (رسييرو بالبو) أن يدرّب مملّكين علمانيين في دور المعلمين ، إلا أن مشروعه هذا لم يطبق بسبب قوة الرجعية ، ولم يستطع خلفه أن ينفذ هذا المشروع إلا بعد ثلاث وثلاثين سنة . وكانت جامعتا تورينو وجنوة في حالة سيئة ، إذ استولى عليهما اليسوعيون بعد سنة ١٨٢١ ، حتى أنه لم يكن يقبل فيهما التلاميذ ما لم يبرزوا شهادة تؤيد اعترافهم وإيمانهم . وكان الجواسيس يراقبون الأساتذة والتلاميذ ، حتى إذا ظهرت من الأساتذة أقل بادرة تم عن استقلالهم بالرأى طردوا من عملهم وحرّموا من الوظائف والمهن الحرة .

وكانت الزراعة مهنة أهل بيمونته الوحيدة باستثناء أهل جنوة ، ويؤلف أصحاب الأراضي خمسى الأهالى ، ويسكن أكثر القرويين في وديان الألبه والأبنين ، وكان الكثيرون من القرويين الملاكين في بلاد الزيتون في الريفيرا يعيشون تارة في هناء وأخرى في شقاء عظيم ، وكان معظم مقاطعات السهول ملك

الأشراف ، وهؤلاء كانوا لا يمشون فيها وإما يؤجرونها للملتزمين .
وكان الخوف من ازدياد الضرائب يحول دون الإقدام على تحسين
الزراعة وتكثير إنتاجها ، وقد كان المزارع إذا تأخر عن دفع
الضريبة تؤخذ منه مزرعته فيبقى مشرداً بلا أرض ، وقد استفحل
هذا البلاء حتى اضطرت الحكومة إلى رعاية المزارعين ، وطلبت
إلى المحاكم أن تنظر في تأجيل ديونهم أو دفعها على أقساط
مناسبة .

وأهل ييمونته على العموم شعب رزين صبور ضيق التفكير
ولكنه يتحلى بقوة كبيرة من الثبات والإرادة ، أما الحكومة
فعلى الرغم من تأخرها فإنها كانت نشيطة ووطنية معاً ، وتحبها
الرعية بسبب وطنيتها . وكان الناس يحسون في ذات نفوسهم
أن مملكتهم سوف تهيم على إيطاليه ، ويكاد سكان المملكة
يتجاوزون نصف سكان نابولي وصقلية معاً ، ولكن كانوا أضال
ثروة وأقل ذكاء من سكان لمباردية ، وظل امتزاجها بأهل جنوه
ناقصاً . وكان خمسا رعيتهما يمتون إلى عرق ما وراء الألبه ويتكلمون
لغة تختلف عن لغة أهل البلاد ، ولكن أخلاق الشعب القوية قد
عوضته عن قلة عدده وثروته ؛ مع أن البيت المالك من آل صافويه
كان قد رعاه وعلمه الطاعة والانقياد له ، إلا أنه طبعه بشمائل
الرجولة والحرية الأمران النادر وجودهما في إيطالية . وكان
القرويون ذوي قدرة على الكفاح واحتمال المشقة دون أن ينوءوا بما

يحتملون ، ويمتازون بإخلاصهم واستعدادهم للتضحية ، فلذلك كانت سياسة الحكومة التقليدية توجيه الشعب إلى التطلع للشرف والطموح إلى التقدم . وكانت كلمة (ميلانو) شعار الملوك . وكان (دى ميستر) رسول المدرسة الحديثة التي تستهدف أن يكون لإيطالية تاج واحد ، وقد رجا من فيكتور عمانوئيل « أن ينسى عرش بيمونته وأن يفكر في عرش إيطالية .

وقد يستمر الأشراف في بيمونته على التباهي بأصلهم البروفنسى واحتقار الدم الطلياني النقي ، وقد تستطيع البورقراطية أن تعتبر إيطالية جزءاً من بيمونية ، بيد أن الوعي القومي القوى فيها كان كفيلاً بأن يقود إيطالية إلى حرب الخلاص . وقد ظلت النمسة في نظر الملك فيكتور عمانوئيل وخلفه شارل فيلكس العدو اللدود لإيطالية ، ولولا خشية الثورة في الداخل لأعلننا عليها الحرب تحريراً لإيطالية ، على أنه لا بد للمعركة سن أن تشب عاجلاً أو آجلاً وستكون معركة حياة أو موت ، ولا غرابة في أن يسود الاعتقاد بين الوطنيين في إيطالية بأن ملوك بيمونته وشعبها هم الذين سيقودون تلك الحركة .

لمباردية وفنيسية

إن تحرير لمباردية وفنيسية كان أمل جميع الوطنيين الإيطاليين ، فكان اغتباط أهل نابولي وروما وبيمونته بالمؤسسات الإدارية التي

يتمتع بها المبارديون والفنيسيون في محله . لقد كانت الإدارة النمساوية في القطريين المذكورين تستمد قوتها من التقاليد المستندة إلى الكفاية والنظام ، وقد تكون هذه الإدارة بطيئة في عملها ولا يرضى عنها الشعب ، وقد تضجى بغيرور الأهليين وعاداتهم القومية في سبيل منافع النمسة وإدارتها المركزية ، وقد يساعد مركز الحكومة المرتبك على سوء تصرف الشرطة وعلى الاضطهاد الشنيع بعض الأحيان ، بيد أن الذي لا شك فيه هو أن النظام والقوة كانا من حسنات الإدارة الجرمانية فضلا عن أن الناس كانوا متساوين أمام القانون ، وإذا استثنينا دوقيتي (بارمه وطوسكانة) فإن الحرية الاجتماعية في القطرين المذكورين كانت تامة لا غبار عليها .

ولبارديه قد انتقلت إلى يد النمسة في النصف الأول من القرن الثامن عشر ، فاستفادت من إصلاحات مارياتريزا ويوسف الثاني ، وعقيب فتوح نابليون الأولى أصبحت ميلانو عاصمة الجمهورية ، ثم أمست عاصمة المملكة الإيطالية ، بعد أن ألحقت بها جمهورية فنيسيه ، وبذلك صارت عاصمة من العواصم الأوروبية المهمة وقاعدة لبلاط نفخم ، وكانت المدينة الأولى في إيطاليا في رقي آدابها وصناعاتها ومشاريعها الاجتماعية . فنفق (سمبلون) قد أشرف على فتحه مهندسون لمبارديون ، وكتدرائية ميلانو أكل بناءها مमारيدون لمبارديون ، وساهم في شرف انتصارات نابليون جنود لمبارديون

وكان (مونتي وفوسكولو)^(١) قد أطلعا أوربا على آداب لمبارديه .
ومع أن النمسة قد منحت لمبارديه وفينيسية الحكم الذاتي في سخاء
فإنها عند التنفيذ خالفت الوعود التي قطعتها ، ولا سيما بعد أن
شغفت دول أوربة بالإدارة المركزية التي اقتبستها من نابليون .
وكان هدف النمسة في هذه الإدارة أن يطبع الألمان والسلاف
والطليان بطابع واحد ، حتى أن مترنيخ كان يقول « على اللبارديين
أن ينسوا أنهم طليان » وطبق التشريع النمسوى في البلاد غير مهم
بمادات الأهلين وتقاليدهم وعرفهم القومى ؛ وعلى الرغم من أن
مترنيخ كان يميل إلى منح الطليان بعض الامتيازات في الإدارة
والقضاء ، إلا أنه إذا ما حدث اختلاف بين نائب الملك وبين حكام
الإيالات أو بينه وبين مدير الشرطة ، كانت فينا هي التي تبت في
الخلافا ، وبذلك كانت تقبض على زمام الحكم ، وأخذت
الكتب المدرسية النمسوية تدرس في المدارس الابتدائية وألزمت
الجامعات بتدريس القوانين النمسوية ، واستعيض عن تدريس تاريخ
إيطالية بتاريخ النمسة ، ورأت الحكومة نفسها بعد مدة من الزمن
أمام مشا كل عظيمة بسبب ما فرض من الضرائب الفادحة .
وكان أهل لمبارديه وفينيسية يدفعون ضعف ما كان يجب أن يجبي
منهم من الضرائب . حتى أن نسبة الضرائب في لمبارديه وفينيسية

(١) Monti ، مونتي شاعر حماسى إيطالى ؛ Foscolo ، فوسكولو

شاعر وكاتب إيطالى .

أصبحت وقت السلم أكثر مما كانت عليه وقت الحرب في العهد
الإفرنسي . أما ضرائب الأملاك فتجاوزت حد العشرين في المائة
من الوارد الصافي ، وكانت الحكومة هي التي تقدر الوارد الصافي
فتسئء التقدير حتى تبلغ الضريبة ثلث الوارد الحقيقي أو نصفه .
وفي غير القضايا السياسية كان العدل النمسي لا بأس به
رغم ما يشعر به من العيوب الكثيرة الموجودة فيه من العدل
الإيطالي ، فالناس لا حق لهم في الحضور إلى المحاكم ، ولا يجوز
للمتهم أن يستشير ، وليس من حقه أن يدرس الاتهامات الموجهة
ضده بإمعان ، ولا توجد هيئة عدول ، ولكن النقص البارز في
العدل النمسي عدم موافقته لمادات الإيطاليين واستخدامه
أكثر القضاة من الأجانب . أما في القضايا الدينية فالحكومة
في لمبارديه كانت أرقى منها في سائر أنحاء إيطالية ، فالرهبان
يعتبرون من موظفي الدولة والراهب الذي يرفض العمل بموجب
التعليمات الإدارية يعاقب . وكان البروتستان والأرثودكس
يتمتعون بحريتهم الدينية تماماً ، ولكنهم محرومون من حق
الاستخدام في الوظائف ، ولم يصب اليهود بأذى ولعل سيطرة الدولة
على جماعة الإكليروس جعل لمبارديه أكثر تثقيفاً وحرية من سائر
إيطالية ، ومع أن اليسوعيين استطاعوا العودة إلى فينيسيه سنة
١٨٤٣ فإنهم لم يستطيعوا أن يدخلوا ميلانو مطلقاً .

وكان التعليم في لمبارديه أعم وأرقى منه في جميع بلدان إيطالية

ما عدا بارمه ونوكا ، وقد كان التعليم الابتدائي إلزامياً على الذكور والإناث من السادسة إلى الثانية عشرة ، وكل وحدة إدارية مهما كانت صغيرة ملزمة بأن تفتح مدرسة فيها ، ولكل مدينة مهمة مدرستها الابتدائية يدرس فيها النحو واللاتين وقليل من العلوم الطبيعية ومدرسة (جنازيوم) (على أن تتم هذه الدراسة في إحدى المدارس الثانوية البالغ عددها الاثنتي عشرة مدرسة) ، وكان في كل من (بادويه وبافيه) جامعة تضم ألفاً وخمسمائة تلميذ وهاتان الجامعتان تبثان المبادئ الحرة في نفوس الطلبة مما دعا إلى نقمة الشرطة وإرهابها .

ولعل رقابة المطبوعات فيها كانت أقل وطأة مما هي عليه في جميع إيطالية ، ومع أن قانون سنة ١٨١٥ قد منح حق النقد السياسي فإنه حظر على أية جريدة سياسية أن تصدر قبل موافقة الرقيب العام في فيينا ، أضيف إلى هذا أن جميع الكتب الأجنبية كانت خاضعة لرقابته حتى الروايات التي ليس لها قيمة علمية ، والمطبوعات التي تهاجم أسلوب الكتابة ونقاوة اللغة ممنوعة . وكان من جملة الكتب الممنوعة مؤلفات (بلزاك وبنتهام وفكتور هوغو ومكيافيلي وهلام ورابله) ومع هذا فقد أحسن الرقيب عملاً بمنع كل تأليف يناهض الأخلاق ؛ أما المؤلفات العلمية غير السياسية وكذلك كتب اللاهوت فكانت تتمتع أحياناً بكامل الحرية ، وكان مجال حرية الفكر في ميلانو أوسع منه في نواحي

إيطالية جميعها ، وكانت أكثر الصحف والمجلات الإيطالية تمتعا بالحرية هي صحف إبالتي لمبارديه وفنيسيه ومجلاتهما .

ولعل لمبارديه كانت القطر الوحيد في إيطاليا الذي يسير الحكم المحلي فيه على نهج واحد ، وكانت طبقة الملاكين تتمتع بحق إبداء الرأي ، ثم إن تقسيم الأرض على الناس جعلهم ذوى إيراد خاص يكاد يخول كل أسرة حق التصويت في الوحدات الإدارية الصغيرة ، وكان الناخبون يجتمعون مرتين في السنة للبت في الأمور المهمة ، وكانوا ينتخبون من بينهم لجنة تنفيذية مؤلفة من ثلاثة أعضاء تنظر في الشؤون الاعتيادية للوحدة الادارية ، وفي الوحدات الإدارية الكبيرة كان المنتخبون لا يجتمعون ولكن ثمت مجلساً مؤلفاً من ثلاثين عضواً إلى ستين عضواً يتولى إدارة الشؤون . وكانت السلطة التنفيذية في المدن الكبيرة مودعة إلى (البديستا) أى المدير أو رئيس البلدية . أما القرارات الجديدة فمن حق المجلس . وكانت الوحدات الادارية تتولى شؤون المدارس والشرطة المحلية وطرق القرى والرهبان في بعض الأحوال ، وتشرف على أمور الصحة والشرطة والأمور الخيرية كما أنها كانت تستطيع القيام بأمر نافذة بموافقة السلطة المركزية ، إلا أنه كلما تقرب الحكم الذاتى من التمثيل القومى كانت مخاوف الأوتوقراطية تضعفه .

وكان لكل من المديريات السبع عشرة مركز لمجلس المديرية

المؤلف من الأشراف والملاكين ، أما المدن الملكية البالغ عددها تسع عشرة فكان لها ممثلوها الخاصون ، وكانت سلطة هذه المجالس محدودة ، فهي التي تدير الشؤون المالية في المديرية وتسيطر على مالية الوحدات الإدارية (الناحيات) ولها بعض الإشراف على الطرق والأنهار والمشاريع الخيرية . ومع كل ذلك فالجلسان المركزيان في لمبارديه وفنيسييه لم يحققا الآمال المعلقة عليهما بالنسبة إلى ممارسة السلطة السياسية الفعالة . وكان الإمبراطور فرنسوا يقول « إن الحكم الدستوري يقضى على الثقة التي يجب أن تسود بين الشعب والأمير » .

وكان القانون في الأمور السياسية جائراً ، ويلجأ إلى تعذيب المتهم وجلده وحرمانه من الطعام وغير ذلك من الأساليب ، ويحضر المتهم أمام المحكمة من دون أن يتاح له استدعاء محام ومن غير أن يعلم التهم الموجهة إليه ، وكانت المذكرات تظل سرية ، وهكذا يرى المتهم نفسه أمام أحكام تمسوين وتيرولين . ومجرد التذمر السياسي يعتبر جرماً يقود صاحبه إلى الاعتقال في قلعة (سبيلبرج) وفي حالة ارتكاب جماعة من الناس جريمة ضد أشخاص آخرين فإن السلطة تسوغ لنفسها إهمال جميع الأصول الحقوقية والحكم من دون محاکمة . وأما التجسس والمراقبة السرية فكانتا على أشدهما ، وكانت المراسلات مع الخارج تفتح ، وكانت ملفات الشرطة حافلة بالتقارير عن مؤامرة مرتبة من قبل بونابرت.

(أى نابوليون المعتقل) أو دسائس حيكمت من قبل الإنجليز أو الروس. وحظرت على المواطن السياحة في الخارج من دون الحصول على موافقة السلطات، وقد يحول بعض التدخلات السرية دون استخدام المواطن في وظائف الدولة، وقد طرد أحد الأساتذة لأنه ردد هتاف البابا جوليوس. « فليذهب الأجنبي » ويكفى للدلالة على حق حرية الاجتماعات أن حفلة رقص خصوصية لم يكن جائزاً أن يدعى إليها من دون موافقة الشرطة.

ومع أن ميلانو فقدت مقامها فقد ظلت المدينة الصاخبة اللامعة المرتابة الخليعة. وكذلك فينيسيه فقد أضاعت منزلها إلا في فترات تجلي فيها الشعور السامى، وكانت الطبقة الارستوقراطية فيها تتملق النمسه وضاعة. أما الطبقة المتوسطة فلم تكن ذات إرادة ونفوذ، هذا ويعيش خمسا أهلها حينذاك على الصدقات. وقد عرف النمسيون كيف يستغلون هذا التردى في الأخلاق فبدلوا إعانات سخية إلى دار الأوبرا، وكانوا كلما حدث هياج سياسى يلهون الناس بمضاعفة الاهتمام باحتفالات الكرنفال. كما أنهم بذلوا جهدهم في تأريث الحتدبين ميلانو وبرسيه وفنيسيه. وكان الشريف الذى يعمل للمصلحة العامة يفقد عطف الحكومة.

ومما يثير الحماسة القومية في النفوس تلك الضرائب القاذحة

التي فرضتها الحكومة على الأملاك ، وكان أولاد الأشراف وبناتهم
يربون على اعتبار النمسين أجنب لا يجوز التساهل معهم ، وإنما
يجب احتقارهم والابتعاد عنهم في الرقص وفي المرح ، بيد أن
الأشراف كانوا قليلي العدد في لمبارديه وكانت الطبقة المتوسطة
تؤلف القسم الكبير في البلاد ، وكانت هذه تعنى كل العناية
بتجارها . وتقدمت الصناعة بفضل ذكاء المماردين وقابليتهم
الفنية ، حتى غدت لمبارديه أ كسف نفوساً في أوربا باستثناء
بلجيكة . ونمت تجارة الحرير وكثرت المنازل في المناطق الجبلية
واشتهرت مصانع الجبن في (لودي وكريما) ، وانتشرت صناعة
القطن وأنشئت مصافي السكر ، ولكن الناس كانوا يعلمون أنه
مهما تقدمت الصناعة في لمبارديه فإن عليهم أن يقدموا الحساب
إلى النمسة . فذلك قيدت التصرفات الجركية المتعددة المرتبطة
نشاط التجارة وشجعت التهريب . فخسرت فينيسيه مقامها في
التجارة على حساب منافستها (تريسته) واضطرت برسيه إلى غلق
معاملها الحربية .

وأكثر الناس في لمبارديه كانوا زراعا وأصحاب الأراضي
يؤلفون ثمن الأهلين ، وكان عددهم في ازدياد مستمر ، وكان كل
قروي في المناطق الجبلية يملك أرضه ويرجح الاحتفاظ باستقلاله
فيها على رفاهيته ، ولما كانت النفوس كثيرة والضرائب باهظة
فإن النقص في وارد الأسرة كان يؤمن من غزل الحرير إذ اعتاد

كل بيت أن يقوم به . ويعيش القروى عيشة الياأس بها ،
وكان على رغم فقره أغنى من القروى الإفرنسى ، وكان الزراع فى
السهول ناقصى التعليم وفى حالة البداوة ، يسكنون فى أكواخ
من الطين ويكرهون رؤساءهم وأسيادهم ، وكثيرا ما استحوذ
الياأس عليهم ولهذا فإنهم يؤلفون عنصرا خطرا .

وكان الأذكىاء يتبرون الإدارة النمسوية -- بمجرد أنها
نمىسوية -- أفضح من الاستبداد القائم فى روما وناپولى . وىمرور
الزمن وبالتدرىح تغفل الحقد على النمسة فى قلوب الناس من
جميع الطبقات وفى كل الأنحاء . وقد توغلت تعاليم (مازىنى)^(١)
بين طبقات الناس من الأشراف والتجار والمهال حتى غدت
البزة البىضاء التى يلبسها الجندى النمىسوى رمز الاستبداد فى
نظر الناس .

(١) مازىنى : من أكبر وطنى إىطالية الذين سموا لاستقلالها واتحادها
وكانت نزعته جمهورىة وسترد أخباره فىما بعد بالتفصىل .

الفصل الرابع

مودينه — بارمة — لوکا — طوسكانه

مودينه : كانت دوقيتا مودينه وبارمه الصغيرتان تقعان إلى جنوب نهر بو ، بين لمبارديه وطوسكانه . وكانت نفوس مودينه وحدها تبلغ زهاء نصف المليون يحكمها الدوق فرنسوا ، وكانت أنظمة الدولة من الوجهة النظرية صالحة لكل ما يؤدي إلى خير الأهلين إلا أن تنفيذها كان يجري على صورة فظيعة من الاستبداد ، وكانت الضرائب فادحة والقوانين المدنية والجزائية سيئة غامضة . وطالما تجاوزت الإرادات الأميرية القوانين وخرقتها فالتهمون السياسيون مثلاً كانوا يلقون في السجون من دون أى دليل ، ويبقون فيها إلى أن تظهر الحقيقة . وقد جلب الحكم الإفرنسى إلى الدوقية النشاط وروح السعى والإقدام فاشتهرت مودينه بمدرستها التي تعد رجال الإدارة ، إلا أن الدوق فرنسوا قضى على ذلك كله كما قضى على نفوذ الحكومات الحرة في النواحي . وكان التعليم الابتدائى شائعاً في قليل من المدن ؛ أما التعليم الثانوى فكان بيد اليسوعيين ، كما أن الجامعة أتلقت بالنظام الذى أصدره الدوق وأصبحت مراقبة المطبوعات بيد المتعصبين الذين

بلغ من تعصبهم أنهم منعوا تداول مؤلفات دانتي .

ويؤلف القرويون الأكرية الساحقة وهم الذين يملكون الأرض إلا القليل منهم ، وكانوا دائبي السعى والعمل في أرضهم الجبلية الشحيحة ، ويرزحون تحت ظلم موظفي الحكومة ، ومجاهدون الشقاء ، ولكنهم كانوا يوالون الحكومة حتى أن الأمير كان يجهز عند الحاجة ما يشاء من المتطوعين منهم .

بارمة : أما دوقية بارمة فكانت على عكس أختها دوقية مودينه ، تتمتع بحكومة هي من أبعد الحكومات في إيطاليا تبصراً ، وكانت كثيفة النفوس ، إذ يبلغ عدد سكانها الأربعمائة والخمسين ألفاً وكانت أرملة نابليون ، رغم خلاعتها وقلة مروتها ، شفيقة بالناس حسنة النية نحو رعيتهما ، وكان الوزراء يساعدها على سياسة رعيتهما ، في الحكم السمع والإدارة الحرة ، وظل القانون الافرنسي نافذاً فيها ، ولم تكن تحت فوارق أمام القانون ، وكانت المحاكمة علنية والحكام مستقلين ، ومجلس الدولة يستشار في جميع الأمور التشريعية وإدارة الشرطة لا بأس بها . وكان التعليم في هذه الدوقية منتشراً بالنسبة إلى أكثر أنحاء إيطاليا ، ففي أكثر النواحي مدارس للأولاد حتى بلغ عدد الذين يؤمّون المدارس نحو خمس السكان .

لوردا : وكانت دوقية لوكا من أصغر الدويلات الإيطالية ، فساحتها لا تتجاوز ثمانمائة وخمسين كيلومتراً مربعاً ، ونفوسها يبلغون مائة وخمسين ألفاً ، وقد دخلها مؤتمر فينا حق الاحتفاظ

بدستور ١٨٠٥ ، بيد أنه سرعان ما ألغى هذا الحق ، ومع ذلك فإن الحكومة لم تكن متعصبة ولا ظالمة ، وكانت الأميرة فى هذه الدوقية كريمة الخلق حتى أنها استطاعت أن تنال ثقة أحرار إيطاليا الذين رأوا فى ابنها الأمير (شارل لويس) الزعيم المؤمل فى ثورة ١٨٣١ . بيد أن هذا الأمير أصبح سخرية إيطالية إذ اعتنق البروتستانتية لشهوة فى النفس ، ثم عاد إلى الكنيسة الكاثوليكية . وكانت البلاد متمتعة برخاء نسبي تستفيد من محصول زيتونها فائدة كبيرة ولكن محصولاتها الزراعية لم تكن تكفى سكانها الكثيرين ، فأخذ فريق منهم يهاجر منها . وفى الدوقية كثير من المدارس الابتدائية ونحو نصفها مجانية ، وكانت المدارس الثانوية فيها جيدة ، أما الجامعة ففيها خمسة وعشرون معلماً ومائة وثمانون تلميذاً .

طوسكانة : وكانت طوسكانة الحكومة الوحيدة — بعد ييموتته وبارمه — التى خضع لها رعيتهما عن طيبة خاطر ، وإذا قورنت هذه الحكومات بحكومات إيطاليا الأخرى ظهر أنها صالحة متساهلة مستغيرة . وكانت الاصلاحات الحسنة من تقاليد أحفاد (لثوبولد) الأول أول دوق نمسوى كبير حكم البلاد ، وهو من الأحرار الذين أنجبتهم أسرة هابسبرج . وكان وزير الدولة الأول ميالا بطبعه إلى الهدوء والسكينة ، ويرى أن السكون وحده كفيل بتجنب البلاد الأزمات ، وشعاره فى ذلك كله :

« أن العالم يسير بنفسه » فلم يكن والحالة هذه يأبه بالمبادئ . وإن كان في طبعه وسياسته يميل إلى خير الشعب . وكانت التعليمات الصادرة إلى الأغنياء الذين تولوا شؤون الإدارة ألا يبذلوا جهداً كبيراً ، قانعين بقبض رواتبهم . وقد خدم هذا الوزير في عهد نابليون ، وكان يحب أن يشتهر بانتسامح والرقى ، فلذلك نراه في فرص عديدة يقبل اللاجئين من الروماني ومن نابولي ، ويساعد أهل فلورنسه العاصمة على أن يرسلوا المتطوعين إلى بلاد اليونان الثائرة .

وكان الأمير لثوبولد الثاني بورجوازي الطبع محترماً نشيطاً ، وكان يحث الإشراف على أعمال الري وزيارة مزارعه التجريبية . ورغم أن الوزير الأول كان يسمى للحيولة دون جعل طوسكانة إيالة تمسوية فإن الأمير كان يحكم قرابته للأسرة المالكة في النمسة ، يميل إلى تنفيذ أوامر فينا . وكانت القوانين خفيفة الوطأة ، ويعد قانون العقوبات الذي وضعه لثوبولد الأول في حينه نموذجاً في كل أوروبا ، وكانت المحاكمة بمقتضى القانون علنية ويجوز إطلاق سراح المتهم بالكفالة ولا يحكم بالموت إلا نادراً . وقد بلغ من تساهل الشرطة حداً وبخها معه مترنيخ ، ومع ذلك فإن التجسس فيها كان نشيطاً فلم تنتهك حرمة البريد في أى بلاد أخرى كما انتهكت في طوسكانة ، وقد بلغت مهارة الشرطة في فتح الرسائل والاطلاع على أسرارها مبلغاً عظيماً ، حتى أن حكومة ميلانو

استعانت بخبرتها في هذه الشؤون وكانت الرقابة على المطبوعات تتساهل إلى حد ما في نقد الحكومة ، وكانت الكتب الممنوعة تباع أحيانا في المكتبات علنا ، أما الكتب الأجنبية فكانت تدخل البلاد بحرية ، وكانت مكتبة (فيوسـو) Vieusseux في فلورنسه المحل الوحيد في إيطاليا الذي يتمتع الناس فيه بحريتهم ، فيتداولون في الأمور السياسية ويقرءون جرائد أوربة المهمة .

وكانت الضرائب خفيفة وعادلة وليس هناك من حصر أو امتيازات تقيد التجارة ، وكانت ضريبة المستوردات أقل منها في أوربا . وبلغ تعلق الناس بحرية التجارة إلى درجة أنه رفض الاقتراح بوضع تعريفه تقيد أجرة للمركبات في فلورنسه . أما الجيش فقد أهمل أمره تماما بل أهين ، وإذا ما أريد الاحتفاظ به فذلك تنفيذ لما فوضته المعاهدات من جهة ولسماع الموسيقى العسكرية من جهة أخرى ، وكان أغلب الضباط من الأسر الغنية والجنود من سواد الشعب ، وهناك كتائب تدعى كتائب التوبة يساق إليها المجرمون . وكان للحكام تأثير في الفساد العام ، وبلغ التردى في هذا الأمر درجة أصبحت معها العدالة في طوسكانة فاسدة لا يوثق بها .

ورغم أن الحريات ظلت مرعية فقد أضاعت البلديات كل سلطتها الفعلية ، وأصبحت أداة لجباية الضرائب ، وكانت طوسكانة تاريخيا مجعما من ناحيات أعرق ديمقراطية من الدول

المتحدة الأمريكية . أما الآن فأصبحت عاجزة عن فرض الرسوم ،
تعين الحكومة المركزية الموظفين وهؤلاء كانوا يضطئون الروس
أمام سيدهم المطاع الشرطة ، ولعل طوسكانة كانت أرق دولة في
إيطالية ، بيد أنها كانت كما قيل عنها (حديقة من حدائق الجنة)
محرومة من شجرة العلم وشجرة الحياة .

ولم يكن الأشراف في طوسكانة من دوحه الأشراف القدماء ،
إنما كانوا من أحفاد الممولين والأمرء التجار في فلورنسه في
القرون الوسطى ، فظلوا دائماً تجاراً وزراة . وبرز من هؤلاء
الأشراف مصلحون اجتماعيون غير ، وكانت جمعية جورج فيس
(George Fils) تشجع الناس على دراسة الاقتصاد وفتح
المدارس وتأسيس صناديق التوفير واشتهر (روفائولم برو شكني
وأزيكو مامير) في نشر التعليم الابتدائي والثانوي كما أن
(برنامي وريكاسولي) اندفعا نحو الإصلاحات الزراعية ، وكان
الكثير منهم يرى « أن السياسة لاتغنى فتيلا ، وأن العادات
الاجتماعية هي الكل في الكل » .

وكانت الكنيسة في طوسكانة متمتعة إلى حد ما باستقلالها ،
وقد رفضت الحكومة أن تتساهل مع اليسوعيين ، وبما أن
الحكومة تدرك الدور السيء الذي لعبته الهيئات الدينية فيما مضى
فإن هدفها أصبح إنقاذ البلاد من استبداد الإكليروس الذي
استعبد بيمونته ، ودمر الروماني ، وطبيعي أن يكون التعليم سيئاً

حينما ترعاه إدارة فاسدة وإكليروس جاهل ، وقد كانت الحكومة تحمى جامعتى (بيزد وسيسنه) اللتين يدرس فيهما العلوم ماعدا الحقوق والطب إلا الشيء القليل ، وكانت المواضيع حتى فى هاتين الشعبتين لا تعتمدى الدرجة الثانوية ، فضلا عن أن النتائج كانت ضعيفة لضعف الأساس فى التعليم الابتدائى . وكانت المدارس الثانوية قليلة ولكل ناحية مدرسة ابتدائية مجانية للبنين ، وكان عدد التلاميذ الذين يؤمّون المدارس فى الأرياف لا يتجاوز عشر الذين تؤهلهم أعمارهم للانتماء إليها . ولما وضع الأعضاء الناهضون فى الوزارة مشروع الدراسة الابتدائية لم يكن فيهم الحماسة الكافية لمقاومة دسائس روما التى جهدت لإحباط المشروع . وبقدر ما كان عدم تدخل الحكومة فى شئون المعارف وبالا على التعليم فإنه كان نافعا للصناعة ، إلا أنه لم يكن فى البلاد النشاط الكافى لتنعم عليها برخاء كالرخاء الذى كان يسود لمبارديه .

وكانت أ كثرية الناس تحترف الزراعة نصفهم أصحاب أملاك ، والثلث أصحاب مزارع ، أما طرق الزراعة فكانت متأخرة ولا شك فى أن القرويين لم يكونوا قد تقدموا فى الفهم الاقتصادى ، إلا أنهم كانوا يأكلون طعاماً جيداً وكانت حالتهم مؤمنة ، وطالما خيم البؤس المدقع على الفلاحين الذين كان عددهم فى تزايد ، وعلى الرغم من أن التسول كان ممنوعاً فى فلورنسه ، فإن عدد المتسولين فيها كان كثيراً .

وخلاصة القول أن السائح الذي يتجول في طوسكانه حينما يشاهد رخاء البلاد ورضاءها يلوّح له أن طوسكانه هي أسعد قطر في العالم ؛ أما الحقيقة فهي أن هذا البناء الجميل كان مشيداً على أساس واد ، وإذا كان في هذه البلاد من يمكن اعتبارهم متمتعين بالحياة الحقة الخصبية فأولئك هم أهل الساحل الأشداء في ليفورنا وتلاميذ جامعتي (بيزة وسينّه) .

دويلات الكنيسة

تقع هذه الدويلات وسط إيطاليا ، ويبلغ عدد نفوسها مليونين ونصف المليون . وكان الفرق البارز بين هذه الدويلات وبين جميع دول أوروبا هو حكومة رهبانها . وكان العالم الكاثوليكي يرى أن شرف البابا وكرامته يتطلبان بأن يتمتع بحقوق الأمير وامتيازاته ومن أجل ذلك تأسست دولة مستقلة يحكمها البابا بصفته ملكاً ؛ ومعنى هذا أن رجال الدين وحدهم هم الذين كانوا يديرون شؤون حكومة الله ، فهم الذين يضعون القوانين ، ويحكمون الإيالات ، ويقضون في المحاكم ، ويديرون شؤون التعليم والشرطة . وكان مجلس الكرادلة المقدس الذي ينتخب البابا أعضائه مسرحاً للدسائس الافرنسية والنمساوية . وكانت الدولة الكاثوليكية ترى أن مصلحتها تقضى بأن ينتخب بابا ضعيف الإرادة كبير السن رازحاً تحت ثقل تعهدات يتحملها

على عاتقه أمام الحزب الذى انتخبه .

وقد قال شاتو بريان : « إن أصل البلاء فى حكومة روما أن شيوخاً طاعنى السن يعينون شيخاً طاعناً مثلهم ، وإن هذا الشيخ مقابل ذلك لا يعين كردينالاً إلا من الشيوخ » ومن ضروب الأمثال الشائعة فى روما المثل الآتى : « حكومة كل بابا عدوة للحكومة التى سبقها . »

وقد كانت الحكومة خارج روما أيضاً بيد رجال الدين فكان الكرادلة يحكمون البلدان الأربعة (الرومانى وبولنية وفراره ورافينته وفورلى) ، وكان الأساقفة يحكمون البلدان الأخرى ذات الأهمية الضئيلة ، وكانت سلطة الكرادلة لا حد لها فكانوا يطالبون بحق فرض الضرائب كما يشاءون ، ويهملون أوامر روما بل ينحرفون عنها ، وكان هؤلاء الأمراء الكهنة يعاكسون كل تجديد ، ففى نظرهم أن السكة الحديدية والبرق والتجارة الحرة واكتشاف لقاح الجدري والأدبيات الحديثة هى عدوة الكنيسة ، ولقد كانت الشؤون المالية فى هذه الدولة على أسوأ حال .

أما الضرائب فكانت خفيفة الوطأة ، ولكن التجارة كانت مقيدة بالحواجز الجمركية ، فضلاً عن فقدان السكك الحديدية والطرق الصالحة ، وتخبط الحكومة وانغماسها فى المرامم . وكانت العصابات منتشرة فى بعض النواحي ولا سيما بالقرب من

الحدود المتاخمة لمملكة نابولي . وكان لكل إيالة نظام خاص للموازن والمكايل ، وقد أدت الضرائب إلى ازدياد حوادث التهريب ، وكان الأسقف الذى يتولى شؤون الخزينة يستنكف من درس الاقتصاد السيامى زاعماً أنه ضار .

وكان الإفرنسيون قد قضاوا على مؤسسات البلدية القديمة العهد ، ولما عادت الأمور إلى مجاريها بعد مؤتمر فينا قضى الوزير الأول على ما بقى منها ، وكان فى الناحيات هياكل حكومات ، ويشرف الحاكم فى الإيالة على الشرطة ويدير شئون العدل وهو فعال لما يريد فى الناحيات ، يتجاوز كل قيد فى سبيل مراضاة أمره الكهنوتى . وكانت القوانين عبارة عن مجلد ضخيم من الأوامر والمراسيم التى لا تناسب بينها ، والتى صدرت فى جميع الأدوار فأكل عليها الدهر وشرب . ولقد احتفظ بقانون التجارة الإفرنسى وأريد بعد مدة وضع قانون مدنى على غرار قانون نابليون ، إلا أنه كان يحتوى كثيراً من المساوىء القديمة كمنعه الطلاق وحرمانه النساء من الإرث وإبطاله الوصيات التى لا تحتوى هبة للكنيسة . وكان مجلس البابا القدسى يستطيع أن يلغى أحكام جميع القوانين ، وكانت أصول المحاكمة تستمد أحكامها من قوانين الكنسية . فلذلك كان للراهب صبغة مقدسة فلا يحاكم إلا أمام محكمة مؤلفة من رجال الدين ، وكانت العقوبة التى يعاقب بها أخف من عقوبة الرجل العلمانى . وأما المحكومون السياسيون فكانوا يسجنون

في محلات سافلة ، ويزجون مع المجرمين الآخرين ، أو يقيدون بالسلاسل ويقضون حياتهم في غيابات الحب . وكانت الشرطة عاتية كل العتوفهى تستطيع أن تسجن الشخص أو تنفيه أو تراقبه أو ترفض إعطاءه جواز السفر ، وتفرض عليه الإقامة في المحل الذى تختاره له وتحرمه من الحقوق المدنية ، وقد تحرمه من عمله وتمنعه من حمل السلاح أو من الخروج ليلاً من داره ، وتفتح الرسائل في دائرة البريد ، وتحرق حرمة مسكنه وتفتش أوراقه ، كما أنها تستطيع أن تغلق المخازن والمقاهى والفنادق وتضع الجزاء النقدي كما تشاء . وكان التجسس عاماً والناس يوقفون بمجرد رغبة راهب القرية .

وبينما كان مجلس التفتيش يضطر الشعب إلى الظهور بمظهر واحد كانت الحكومة تسمى لمحو الإلحاد والشغب بشل التعليم ، وكان مما يسند إليها أنها تتساهل في القضاء على الرذيلة وتضطهد الفكر الحر . وكان أحد أسياد الكنيسة لا يتورع عن القول : « تسهل جداً إدارة الشعب الجاهل » . وكان رجال الاكليروس يحتكرون التعليم ، فأفسدته أنظمتهم الصارمة ، وكان لا يستطيع أحد أن يعلم من دون مساعدة الأسقف ، وسيطر اليسوعيون على التعليم الثانوى . أما رهبان الايغوراثينه (Ignorantine) الذين لا يحبهم الشعب فالفوا الهيئات التعليمية في كثير من المدارس الأولية . فكان أكثر الأساتذة في الجامعات من رجال الكهنوت .

ولم تبذل أية عناية لتعميم التعليم الابتدائي بين الشعب ، حتى أن البنات حرمن من التعليم الابتدائي حرماناً كلياً ، وكان الرأي العام ينقم على كل من يعلم بناته . ويقدر عدد الذين يؤمون المدارس باثنين في المائة ؛ أما في روما فترفع هذه النسبة إلى عشرة بالمائة ، وقد كان طلاب المدارس الثانوية يحملون على حشد أدمغتهم بدراسة الصرف والنحو اللاتيني ، وبدراسة ما وراء الطبيعة القديمة مما يفسد قرائحهم ، على أن هذا التعليم الناقص لم يحل دون كثرة الجامعات . فهناك جامعتان كبيرتان في روما وبولونيه وجامعات فرعية أخرى في (بيرونه وفواره وكبيرينو ومسبراتو وفرمو) . وعلى الرغم من أن هذه الجامعات لا تدرس فيها الآداب الحديثة والاقتصاد السياسي وما شابه ذلك من المواضيع ، فإن الحكومة كانت في قلق مستمر من أن تكون هذه الجامعات مباءة للحرية . وقد منع اليسوعيون دراسة دانتى في مدارسهم وحين تأسيس بعض المعاهد الخاصة لدراسة المؤلفات الاقتصادية ما أسرع ما منعت من ذلك ، وبلغ تقييد التعليم حداً منع معه أحد الرقباء تلاوة أشعار نظمت عن الزلزال . ولم يسمح بقراءة المؤلفات الإيطالية والأجنبية فضلاً عن أن أكثر المؤلفات الحديثة المشهورة ومعظم الجرائد أدخلت في قاعة المطبوعات الممنوعة . وكانت الحكومات تنشئ من هذا المنع أن تصون الإيمان الديني من أن يتزعزع ، وفاتها أن هذا الاضطهاد نفسه من شأنه أن يخدم حرية الفكر ، وأن

يؤدي إلى تمسك الطبقات المثقفة بها وإلى تفويض دعائم السلطة البابوية . وطبيعى أن تؤدي كثير من الأنظمة الأخلاقية الشديدة إلى عكس ما يراد منها إذا كان القائمون على تنفيذها أنفسهم فاسدى الأخلاق .

فالرقابة الشديدة حرصت على أن تكون المسارح ظاهرة ، ولكنها سمحت للكنائس بأن تكون بؤرة للدسائس والفساد ، وقال أحد الحكام الأيرلنديين وقد ساح في الأرض : « إن رعية البابا هم الشعب الأوروبي الوحيد الذى يلاقى اضطهاداً أكثر مما يلاقى أبناء وطنه (الأيرلنديون) .

أما جور العصابات وتعديات رجال سنتوريون (Centurion) فقد قضت على البقية الباقية من الرفاء الذى كان يتنعم به القرويون والمزارعون ، وكانت جمعية السانفيديست (Sanfedist) تضم بين جنبها الماطلين ليصبحوا حماة الإيمان المتحمسين . والآنكى من ذلك كله أن الخلافات المورثة قد انقلبت فيما بعد إلى كفاح دموى بين الأحرار وجماعة السانفيديست ، وكانت دولة الرومان دائماً ساحة للمؤامرات ، وكان أكثر الأحرار من أنصار الانفصال عن روما ، ولم يكن هناك تجانس بين المناطق الغربية والمناطق الشرقية إذ كانت جبال الابنين تفصل بين روما والدويلات الأخرى ، وكانت هذه الدويلات قريبة فى عاداتها وأهوائها من

الأيالات التي ألقت بلاد إيطالية . ولم تنس مدن الرومان الحرية المفقودة التي كانت تتمتع بها بموجب المعاهدات القديمة . لقد قضى نابليون على هذه الحرية ورفض الوزير الأول في حكومة البابا أن يعيدها فاعتبرت هذه الحكومة ناكثة لعهودها ، وكانت أكثرية أهالي بولونية الفخورة بتاريخها وجامعتها وتجارها يحملون في صدورهم حقداً على روما ، ومن جملة الأمثال الشائعة في الرومان . « اترك ولا البابا » حتى إن القسم الكبير منهم كان يرضى بحكم النمسة إذا استطاعت أن تنقذهم من جور الحكومة البابوية . وكان البعض من رجال السياسة يرتأى أن الحكم الذاتي هو الوسيلة الوحيدة لاحتفاظ روما بإيالات الادرياتيک ، وكما حدثت أزمة في الدولة يتجلى الشعور بالانفصال شيئاً فشيئاً .

والخلاصة أن روما كانت كما وصفها مترنيخ « مرسحاً ضخماً لمثلين سيئين . كنائسها حافلة بالزينات إلا أنها خالية من الناس » وكانت المدينة في ظاهرها من أطهر مدن أوربا خلقاً ، أما في الواقع فكانت من أفسقها . وكانت الصناعة فيها غير ناشطة والمسؤولون منبشون في طرقاتها وأكثر فقرائها عالة على بيوت الأساقفة والأشراف . أما العامة فكانت تحمل في قلبها ولاء لا حد له للبابا وفيما عدا بعض الفترات فمدينة روما كانت أقل إيطالية من جميع المدن الإيطالية .

الفصل الخامس

مملكة نابولى وصقلية

كانت مملكة نابولى وصقلية أو الصقليتين بالاصطلاح السياسى تقاس بثلاثة أثمان شبه الجزيرة ، وتمتاز عن غيرها من الدول الإيطالية بموقعها الجغرافى وبالبعض الشديد بين النابوليين والصقليين ، وكان هذان البلدان اللذان وحد بينهما اضطهاد الحكومة المشترك يختلف الواحد عن الآخر فى التقاليد والميول ، ولا تشابه بينهما مطلقا فى السجاياء وفى الحالة الاجتماعية ، ولما عاد الملك إلى نابولى من صقلية سنة ١٧٩٩ بعد أن التجأ إليها راح ينتقم من الرعية ، وحينما انتصر الإفرنسيون عاد الملك إلى منفاه فى صقلية بحماية السلاح البريطانى فدخلت نابولى فى الحكم الإفرنسى فى عهد يوسف بونابرت أولا وفى عهد مورات أخيرا . وقد ألغى الإفرنسيون النظام الإقطاعى وبيع الكثير من أملاك الكنيسة الواسعة أو أجر ، وقسمت الأراضى فى الناحيات أقساما صغيرة وأجرت للفقراء من الأهلين ، واشترى صغار الملاكين أرضين واسعة ، حتى بلغ عدد الملاكين للأرض نحو المليون أى نحو خمس السكان .

وفضلاً عن أن مورات أُنقذ نابولي من النظام الإقطاعي ، فقد
جهزها بقوانين إصلاحية ومالية منتظمة ، وأدخل فيها طريقة
استملاك الأرض بصورة مستقرة ، ورغم أن أكثر الأمور عادت
بعد مؤتمر فينا إلى حالتها القديمة ، فإن القانون والكنيسة والأرض
ظلت نظرياً على الأقل متفقة والقرون الحديثة إلا أن الفساد نفسه
كان يسود دائماً في كل شعبية من شعبات الإدارة . وكان القانون
المدني لنابولي أرقى في إيطالية كلها ، وكانت المحاكم مفتوحة لمن يشاء
من الناس ليمتاضى أمامها . وكانت طريقتا جزاء التقدي وتخليه
التهم بالكفالة مرعيتين ، وللهنهم أن يختار محامياً له ولكن التحكيم
كان عملياً هو القانون الوحيد في أكثر الأحيان . وكان البلاط
يتدخل لحماية — المحسوسين عليه أو لاضطهاد الأحرار . وكانت
الشرطة ذات صلاحية لحماية المتهمين تبعاً لأصول محاكماتها السرية
وغير الشرعية ، ولها أن تحل سبيل المحكومين أو أن تبقى المتهمين
في السجن رغم أن المحاكم برأت ساحتهم ، وقد تجلد المسجونين .
وكانت الحكومة تغض النظر عن تعذيبهم زد على ذلك أنها تشجع
الشرطة عليه ، وقد يقع القتل في رابعة النهار ولا يعاقب القاتل
إذا كان له أصدقاء أقوياء .

وكان لكل أيا له مجلس معين الحكومة أعضائه وله صلاحية
فرض الضرائب والقيام بأمور النافعة والإشراف على الطرق
الكبيرة وشؤون الجمعيات العامة ومراقبة الموظفين واقتراح

الإصلاحات الإدارية ومناقشة القضايا الخاصة بمصلحة الدولة العامة. أما مجالس المديريات فكانت تشرف على الطرق القروية والمدارس الأولية وتلقيح الأولاد واللقاط والقيام بمعيشتهم بيد أن هذا البيان مهما كان قوياً حيث المبدأ فإن فساد الحكومة واستبداد الرؤساء المحليين الصغار كفيلاً بتقويضه . وكان التصويت لانتخاب أعضاء مجلس الناحية لا يمثل غالباً إلا أوامر السيد الإقطاعي القديم الذي كان عملاؤه ينهبون أموال المديرية ويتلفون غالباً بالاتفاق مع الموظفين على حسابه .

أما في التعليم فهناك هوة سحيقة بين القول والعمل ؛ فالقانون يحتم على كل مديرية — ما عدا الصغيرة جداً — أن تكون لها مدرسة أولية ، وعلى كل ولاية أن تكون فيها مدرسة ثانوية بيد أنه لم يبذل أى جهد في سبيل حضور التلاميذ إليها ، ولا توجد في مدينة نابولي نفسها سوى أربع مدارس مجانية ، ولا يؤمها أكثر من ثلث الذين هم في سن التعليم ، وكان الأساقفة يبذلون جهدهم ليحولوا دون انتشار التعليم حتى خلت بعض المديريات من أى فرد يقرأ ويكتب ، ومما يدل على انتشار الجهل أن القانون كان يحتم أن يكون ثلث أعضاء مجلس المديرية ممن يحسنون القراءة والكتابة . ولكن الجامعة كانت ذات مقام وصيت ، فدروسها تلقى اهتماماً وتبهماً كثيراً ، وأن أساتذتها يتمتعون بالاستقلال إلى حد ما ،

يبد أن بلاد الحياة والجو الصاخب فى العاصمة كان يفسدان أخلاق
فتيان الولايات أحياناً .

ويمكن تشبيه الحكومة بأهرام رأسه الملك وقاعدته الشرطة
والرهبان ، فما اهتم الرأس ولا القاعدة بالمصلحة العامة قط ، وهذه
وزارة الداخلية كانت سوقاً يروج فيه بيع المناصب وشراؤها .
وكان بعض الموظفين الكبار يحتكرون الخنطة للمضاربة بها على
حسابهم الخاص . وقد استولى وزير الداخلية على أمن قنى خرائب
(بومبى) لجموعاته التحفية الذاتية ولم تتردد حاشيته (أو من
يعملون معه) من الاقتداء به . ولا يجوز محاكمة الموظف إلا بموافقة
الملك ، فاستغل الموظفون هذه الحصانة كل الاستغلال . وكانت
الشرطة تخلق بحرمة المراسلات وتقوم هى بعمليات التهريب ، وتخبز
الأشقياء من أهل كلبريه حينما يهددهم خطر الحكومة ، وقد تأدبهم
حين يطاردون . وكان أكثر الأشراف راضياً عن ذلك ما دام
القسم الأكبر من المتاع النهوب ينتهى إليهم . وكان أشراف كلبريه
يتغيبون عن محل سكنهم ويترددون على العاصمة . الأمر الذى لم يكن
مألوفاً فى جميع إيطالية .

وكانت ضرائب الجمر فاحشة حتى تناولت الكتب الأجنبية
فحالت دون دخولها ، وكانت الطبقة المثقفة ضئيلة العدد ولا ينكر أن
البعض من القضاة والأدباء كانوا ذوى ثقافة راقية إلا إنه كانت
تعوزهم الحيوية والوطنية اللتان يمتاز بهما مثقفو شمال إيطالية

ووسطها . وكانت الدسائس وارتباك الحكومة عبارة عن عراقيل أمام كل المشاريع . وقد فرض الملك بعض القيود على المصارف وألغى شركات التأمين . وكانت نابولي أكبر مدن إيطالية ، ويبلغ عدد نفوسها ثلثمائة ألف ونيفا ، وكانت العاصمة بالنسبة لسائر المدن ابن الحكومة المدلل . فبينما القرويون يتضورون جوعاً كانت الحكومة تجود بالإعانات لسرح (سان كارلو) وكانت جمعية (لزاروني — Lezzaroni) البالغ عدد أعضائها أربعين ألفاً ونيفاً تضم خليطاً من فاسدى الأخلاق والعاطلين الذى حجّرت الآلام قلوبهم وزادت غلظة بالاعتقادات الباطلة ، وكانوا يتحفزون لتلبية أول نداء يحدوهم إلى قتل الصناع والتجار ونهب ما يستطيع نهبه باسم منفعة العرش والمذبح . أما جمعية (كامورا — Camora) فكانت ذات تنظيمات مروعة تستخدمها لحماية الإجرام وجباية الضريبة السوداء .

وكان خمس أسداس العمال يخدمون فى الأرياف ، وتحتوى الملكة مقاطعة (ترادى لافورو) الخصبه فضلاً عن منطقة المراعى السهلة على ضفاف الادرياتيک ومزارع الزيتون الغنية ، وكان القسم الأكبر من البلاد ذا خصب يفوق الوصف ، بيد أن إهمال الحكومة وسوء الإدارة حالتا دون الاستفادة من هذا الخصب إلا فى بعض الساحات الضيقة ، وعرقل الزراعة فى القسم الجنوبى من البلاد فقدان الطرق ، فكان طبيعياً ألا تتقدم الزراعة تقدماً

يذكر ، وأن تكون غلة الحبوب والجوز والزيت رديئة ، وكانت
أكثرية المزارعين تستأجر مزارعها بشروط باهظة ، ثم تدفع
الفوائد الفاحشة إلى الشريف المرابي وإلى الدائن ، ويحدث —
أحياناً أن يؤجر قسم كبير من الأرض ، وذلك رغم تحذير التشريع
الأفرنسي بمقود كثيرة الأجل جداً حتى إذا ما انتهت استلم
الشريف الأرض وغلتها بتعويض قليل أو بدون ، ثم يأتي دور
جاني الضرائب ليأخذ ما أبقاه الملاك ، وكانت هناك ضريبة
فاحشة مفروضة على الأرض يطالب القرويون بدفعها دون هوادة
وكثيراً ما كانت بيوتهم وأدواتهم تصادر لأداء ضريبة الطحن
الباهظة ، وكان سعر الملح الذي تحتكره الحكومة غالياً حتى كان
الشعب أحياناً لا يستطيع شراءه ، وكان الأشراف يضطهدون
القرويين والفلاحين ويستعبدونهم ويفسدون أخلاق أسرهم
ويدعونهم في فقر مدقع ، واستوطنت الشقاوة منذ أجيال خلت
بعض المناطق الجبلية ولكنها اكتسبت في عهد الأفرنسيين
صبغة سياسية . ولما عاد آل بوريون أصبحت واسطة أجرام ؛
فكان أهل كلبريه لا يخرجون من دورهم إلا شاكي السلاح من
رؤوسهم إلى أخمص أقدامهم .

وطبيعي ألا ينتظر من شعب هذا شأنه أي نشاط سياسي
محكم ، وهذا لم يحل دون وجود طبقة كبيرة من الملاكين والتجار
الذين آمنوا شر الفاقة واعتزلوا في أملاكهم الصغيرة ، ولا شك

فى أن الكاربوناريين فى سنة ١٨٤٠ قد استمدوا قوتهم من هؤلاء ، بيد أنهم مع الأسف كانوا يؤلفون أقلية صغيرة ، أقلية فاسدة الأخلاق فاقدة النشاط .

والخلاصة أن السواد الأعظم من الشعب كان مصاباً بالجهالة والشقاء ؛ فيلوح والحالة هذه أن تأخر المدينة وتباين المنافع كانا يحولان دون أن تسير نابولى محاذية لآتحاء إيطالية الأخرى .

صقلية : كانت صقلية ونابولى تؤلفان دولة واحدة إلا أن حقداً دفيناً كان يفرق بينهما كما يفرق الحقد بين إيرلندة وانكلترة وكان اختلاف العرف والتاريخ والطبائع يحول دون اندماج الجزيرة بشبه الجزيرة ؛ فمزيج من الدم النورمندى والعرب والبربر فى الجزيرة وأقليمها شبه الحار والتقاليد البرلمانية المتأصلة فى الجزيرة ، ذلك كله جعل للجزيرة خصائص لا رابط لها بتلك التى فى شبه الجزيرة ، وكان الصقليون يمتازون بالكرم والرجولة ويتحلون بأمانة صلبة فلا يخون الصقلى أحداً إلا فيما ندر ويفضل الحياة البرلمانية التى استمدت سبعة قرون ، كان الصقليون يهتمون بالأمر السياسية ويتميزون بالوطنية وقد تمتعت صقلية باستقلالها مدة طويلة ، وعلى الرغم من انضمامها إلى نابولى سنة ١٧٣٥ فإنها ظلت محتفظة بعلمها الخاص وبرلمانها وإدارتها .

وقد أدى الصراع الناشب بين البلاط والأشراف سنة ١٨١٢

إلى تثبيت حقوق الصقليين ؛ فإن الناس لم يسلموا من اضطهاد آل بوربون وظلمهم ، وكان موظفو نابولي يجهرون بملء أفواههم أنهم أتوا إلى صقلية ليمدّوا سكانها المتوحشين ، وكانوا يعاملون الجزيرة معاملة المستعمرات مما أدى إلى حقن الصقليين عليهم وعلى بلاطهم ، وكان التودد بين أحرار باليرمو وأحرار نابولي قليلاً ، ولم يكن الصقليون يضمرون الولاء لنتاج ، وإنما كانوا على استعداد ليمدوا أيديهم إلى أية دولة تمنحهم استقلالهم ، سواء أ كانت تلك الدولة إنجلترا أم روسية أم فرنسية ، ولم يتسرب الشعور الإيطالي في صقلية إلا أخيراً حين أخذت الجزيرة تستنجد بإيطالية ضد نابولي ، وترى أن الحرية إنما تكون بالاندماج في وطن مستقل واحد تقف فيه صقلية على قدم المساواة مع نابولي .

لم يجر تقسيم الأملاك على صورة واسعة كما هو الأمر في نابولي رغم القوانين التي كانت تسهل بيع الأملاك في صقلية ، وقد أعد الملاكون الكبار وألقوا عصبة فيما بينهم لحماية منافعهم وانضم إليهم بعض التجار الذين استملكوا بعض الأراضي ، ومع أن أملاك الناحيات قسمت أقساماً صغيرة إلا أن القسم الأعظم من الشعب لم يكونوا أصحاب أراضي إلا في بعض المناطق حيث وجد كثيرون من صغار الملاكين ، ويجدر بنا أن نذكر أن تسعة أعشار الأرض كانت بيد الأشراف والأساقفة وامتدت أملاك بعض الأمراء إلى مسافة خمسين كيلو متراً ، وكان الأمن

مختلا في الأرياف مما حدا بالناس إلى سكنى المدن حتى يصح القول بأن اثنين في المائة فقط من أهالي ثلاث إيالات كانوا يعيشون في الأرياف ، فكنت ترى مراعى طبيعية واسعة المساحات بلا قرى ومن دون أشجار ، موبوءة بالمalaria ولا تصلح إلا لرعى الماشية ، هكذا غدت حالة البلاد التي كانت مستودع الحبوب والميرة الإيطالية ، وقد ساعد على صيرورتها إلى هذه الحالة أنه لم يكن لدى أصحاب المزارع رأس مال كافى لاستغلال أملاكهم الواسعة التي تتفاوت مساحتها من (٢٠٠٠ إلى ٥٠٠٠) فدانا ، وكان هؤلاء يقسمون أرضهم قطعاً صغيرة ، ويؤجرونها للقرويين إلى آجال قصيرة ، ويقدمون لهم البذر ، ويؤمنون مالا لشراء البقرة والحراث ، وهؤلاء يزرعونها حبواً ويدفعون لمؤجريهم ومقرضيهم عينا من الغلة كانت تبلغ ثلاثة أرباعها ، وطبيعى ألا تؤدي تلك الطريقة إلى تقدم الزراعة فتبقى في حالتها الابتدائية .

على أن حالة التجارة في الجزيرة كانت أسوء من حالة الزراعة ، ولعل الصناعة الوحيدة فيها كانت صناعة الخمر وأعمال مناجم الكبريت التي كانت تستغل برؤوس أموال أجنبية . ولم تكن المبادلة التجارية بينها وبين نابولي جيدة ، فكانت أنظمة الحماية تعرقل نمو التجارة وتقدمها ، وكانت حالة العمال في المناجم سيئة . ويتقاضى الفلاحون الذين يقطعون كل يوم مسافات طويلة للذهاب من

مساكنهم في المدينة إلى الحقول أجرة أسبوعية تتفاوت بين الست
فرنكات إيطالية والتسعة . ومع أن القرويين كانوا ذوي جد وقناعة
فإنهم رزحوا تحت أمثال الربا الفاحش ، ورسوم الطحن العالية ،
وضريبة الأملاك . ولطالما أدى بهم اليأس إلى ترك أرضهم
والانخراط في سلك الأشقياء الذي يدر عليهم أرباحاً لا تدرها
الزراعة .

ولم يكن في البلاد من يحترم القانون ، والحكومة نفسها
لم تكن تتردد في خرقه . أما الموظفون فكانوا يستخدمونه حسب
أهوائهم ، وكان الأشراف يستخدمون أنصارهم لقتل أعدائهم ، نخد
الأشراف وأشقياء باليرمو الجناة وغارسو أشجار البرتقال في منطقة
(كنكار دو) والطبقة الوسطى في المدينة كل أولئك يتآمرون
سرا على القانون ، ويقفون في وجه العدالة ويشلون أعمال الحكومة
ولم يك ينقذ هذه الجزيرة المسكينة من شقلها إلا السعى في أناة
لإنشاء جيل جديد يشفيها من جهلها وفقرها ومعتقداتها الباطلة .
ولم يعمل شيء ما في هذا السبيل ، فلا أثر للتعليم تقريبا ، وأولاد
الأشراف أنفسهم كانوا أميين في الغالب ، وتنفق مدينة باليرمو
على أولاد اللقطاء عشرة أضعاف ما تنفقه على التعليم ، ويتقاضى
أساتذة الجامعة أجرة هي دون أجرة جندي دركي ، وكان الشعب

يؤمن بمعتقدات دينية وثنية ، ولا تفوتنا الإشارة إلى أن الكنيسة كانت قوية جداً ، وأنه كانت للرهبان أموال جسيمة لم تتعرض إليها الثورة ، ولعل قيمتها تفوق قيمة جميع الأديرة في إيطاليا وينقسم الشعب طبقتين . طبقة الأشراف وطبقة العمال ولا توجد طبقة البورجوازي المتوسطة .

الفصل السادس

إيطالية بأجمعها

إن الذين لا يصدقون وجود أمة إيطالية ، يؤيدون دعواهم باختلاف السجاياء التي يتصف بها أهل الدويلات المختلفة فيها ، وندرة الصفات المشتركة بينهم ، ويشيرون مثلاً إلى الفرق بين ابن ييمونته الرزين المجتهد ، وبين العامل الفرار العاقل الخليع في فينسيه و نابولي ، وكذلك بين الطوسكاني الذكي اللطيف والصقلي الحديد المزاج السفاك ، ثم يقولون إنه لم يجمعهم أصل مشترك . فالدم الجرمانى هو الحاكم فى الشمال ، بينما الدم العربى والنورمندى والاسبانى قد ترك أثاره فى صقلية ، أما الدم الإيטالى والأترسكى القديم فبقى فى طوسكانة وبعض المناطق الوسطى مع معرفة أنه لم يكن نقياً . أما الحكومات المختلفة فى تلك الدويلات فقد كومت فى الشعوب الإيטالية عادات اجتماعية متفاوتة ونظم التملك المقارى لا تشابه بينها مطلقاً ، وقد دفعتهم إما إلى النشاط فى الصناعة أو الركود فيها . أما درجة التعليم فإما راقية وإما منحطة . وهذه التقاليد والعادات الإقطاعية كانت سائدة فى ييمونته و نابولي وصقلية . بينما لم تبق فى طوسكانة ولبارديه إلا آثار لا قيمة لها

إن لم يكن قد نسي أكثرها ، على أنه لا بد من ملاحظة أوجه الشبه بين هذه الدويلات رغم تلك الفروق . فالتفاوت بين ييمونته و نابولي في إيطالية لم يكن أعظم منه بين البروقنسيين والنورمنديين في فرنسة ، أو بين البروسيين والبافاريتين في ألمانيا ، أو بين الأنجليز والإيرلنديين في إنجلترا ؛ ولكن مما لا شك فيه أن الامتزاج العظيم الذى حدث بين هذه الأجناس المختلفة ووحدة التفكير قد ضمن وجود أساس للاتحاد . وعلى رغم اختلاف اللهجات في إيطالية ، فإن اللغة كانت واحدة والاسم واحد ، وهناك ذكرى مشتركة لماض مجيد ، يوم كانت روما تحكم العالم . وكانت كل منطقة من مناطق إيطالية تحتفظ بذكريات الرجال المظام ، الذين أنجبتهم إيطالية ، وتفتخر بأعمال روما الخالدة ، وكان لإيطالية أدب مشترك ، وكلها تفخر بدانتى ومكيا فيلى .

وعلى الرغم من التحاسد بين ييمونته وجنوة ، وبين نابولي وصقلية ، وبين الرومانى وروما ، وعلى الرغم من تضارب المنافع حتى بين صغار المقاطعات ، فإنه كان واضحاً لدى المفكرين أن الشعور بالصلحة المشتركة يدفع أجزاء إيطالية المتفرقة إلى اندماج بعضها ببعض الآخر ، لتكوين إيطالية الموحدة . ويتألف الشعب الإيطالى من طبقات عدة ، وكان الإكليروس البالغ من العدد مائة وخمسين ألفاً يؤلف الطبقة القوية ، إذ كان نفوذه متغلغلا في جميع الأنحاء ؛ فبإشرافه على المدارس وبسلطته في مراسم الزواج

وبمقدرته على فتح أبواب السماء قد استطاع أن يسيطر على النفوس وأن يصبح ذا نفوذ لا حد له بين الشعب الإيطالي التدين . فليس مستبعداً والحالة هذه أن تقف الكنيسة بجانب الأمة في كفاحها ضد الأجنبي ، فقد وجد بين الخوارنة والرهبان وطينيون ، وراح منهم في كل ثورة شهداء ، وكانت نار الوطنية متأججة في أديرة لمباردية وصقلية .

أما الطبقة الثانية في إيطالية ، فكانت طبقة الأشراف ، وقليل منهم من كان يملك أرضاً ، ويعيش هذا القليل دائماً في المدن بعيداً عن أملاكه ما عدا أشراف صقلية وكابريه ، وأخيراً أشراف بيمونته ، وبذلك أضاع الأشراف نفوذهم في مناطق أملاكهم ، وكثر لقب الكونت في الشمال وفي الوسط ولقب الدوق والأمير في الجنوب ، فقلل الكثرة من قيمة هذه الألقاب . وكان الأشراف في نابولي وفنيسيه وروما متردين معروفين بفساد الأخلاق ، حتى أن أحداً من رجال السياسة لم يفكر قط في جميع التقلبات السياسية التي حدثت في ذلك العصر بالدعوة إلى إيجاد مجلس أعيان . أما الأشراف في صقلية فكانوا أغنياء يتحمسون لما يتحمس له الشعب ، وبذلك كانوا ذوي نفوذ عظيم ، وَقُلْ مِثْلَ ذَلِكَ عَنْ الطَّبَقَةِ الارستقراطية الفخمة في ميلانو من حيث النفوذ والغنى والقوة . أما أشراف فلورنسه في طوسكانة فكانوا يتحدرون من أسر التجار في الجمهورية ، وأما طبقة الأشراف المسكرين في بيمونته (٦٢)

فإنها استطاعت رغم خشونتها وتأخرها أن تتمتع بميزتها الإقطاعية وبتقاليدها الوطنية المتينة . فيرى الإنسان الأشراف على رأس كل حركة أو ثورة تنشب في سبيل الحرية ، وكما حق للطبقة المتوسطة أن تفخر ببعض رجالها فلطبقة الأشراف أن تفتخر ببعض — رجالها أيضاً ؛ أما الطبقة الوسطى فهي خير طبقات الأمة ، فقد قوى نفوذها في المهد الإفرنسي .

واشتهرت (مودينه) بمدارس لتخريج الموظفين ، ومن هؤلاء مهندسون وعلماء ومنشئون وأذكاء أصابهم التوفيق ، ولكن هذه الطبقة كابتت من الاضطهاد أكثر مما كابتته أية طبقة أخرى بعد مؤتمر فينا ، ولم يكونوا يتهافتون على الوظائف المدنية التي لم تبهرهم إذ كان الموظف في نظرهم رجلاً يبيع مواهبه لمضطهدي الأمة . فضلاً عن أن الوظيفة في حد ذاتها لا تنفسح أمام المرء مجال التقدم ، فلذلك كان النمسيون في المباردية والأشراف في بيمونته وكبار الكهنة في دويلات الكنيسة يتولون أعلى المناصب . أما المشاركة في الآداب فكان طريقاً شائعاً لأن الرقيب كان واقفاً بالمرصاد ، ومع كل ذلك فقد غنيت إيطالية بالكتّاب ، وكان لها فلاسفتها وشعراؤها وعلمائها وقصاصوها ، هذا رغم أن الرقابة كانت تحول دون انتشار الكتب السياسية والاجتماعية والاقتصادية ؛ ومما قيل في هذا الشأن إن الجرائد الرسمية كانت تبحث في شؤون الهند واليابان أكثر مما تبحث في الشؤون الأوربية ، ولا تبحث قط عن

السياسة المعاصرة ؛ وكانت مجلة (اتنالوجيا) هي المجلة الإيطالية الوحيدة التي تضاهي المجلات الأوربية الكبيرة . وكانت التجارة لا مخرج لها ، فقوانين الحماية والحواجز الجمركية وفقدان العملة وتباين الأوزان كل هذه عراقيل تحول دون نموها .

وكان خريجو الجامعات من الشبان يتهافون على احتراف القضاء أو الطب ، وبذلك يتزايد جيش — المتذمرين من الاضطهاد الاجتماعي الذي يقضى على طموحهم ويصلبهم نار حياة عاطلة غير مجدية . وفي إيطاليا أربعة وعشرون جامعة تضم أربعة عشر ألف طالباً من أبناء الطبقة الوسطى ، وكانت هذه الجامعات في طبيعة كل حركة قومية تسيطر على الطبقة المثقفة كما أن حياتها الديمقراطية الحرة كانت تهدم الظروف الاجتماعية ، وعليه فإن ارتياب الحكومة منها وإقامة العراقيل في سبيل تقدمها لم يكونا من دون سبب . حقاً إن الجامعات هي التي هيأت المنصر المثقف الذي قاد الحركة القومية فأنجبت لها المفكرين والكتاب والمحاربين ، فأساندة جامعة بولونية هم الذين قادوا ثورة ١٨٣١ ، وأساندة جامعة بيزا وبافيه وجنوه وطلابها كانوا روح حركة التطوع التي جندت القسم الأعظم من الألف الفاريالدين .

وأخيراً نتحدث عن الطبقة الرابعة ، وهي طبقة العمال ، وهذه لم تختلف حالتها عن حالة الطبقة المتوسطة من حيث الاضطهاد ، ومع أن حالتهم من حيث المعيشة والسكنى كانت غير مريحة ، فإن بساطة

الحياة في إقليم معتدل واستقرار التجارة جعلهم بآمن من الحاجة .
وكان عدد العمال لا يتجاوز الخمسة عشر بالمائة من مجموع النفوس ،
وكانوا على العموم نشطين أذكاء ، وبعضهم مثقفون ذوو مهارة فائقة
من البحارة ورؤساء العمال ، ففي فينيسة مثلاً كانوا من ذوى
الثقافة العالية .

لم تكن إيطالية بلداً صناعياً . ولم تزد المدن التي يتجاوز عدد
سكانها المائة ألف نسمة عن الست ، ولعل مجموع نفوس العواصم
الثماني لا يبلغ المليون نسمة . ويزاول ستون بالمائة من مجموع
النفوس مهنة الزراعة ، ومع ذلك فإن حالة الزراعة كانت متأخرة ،
وكثير من الأراضي التي تعد من أخصب أراضي أوروبا كانت
موبوءة بالمalaria فضلاً عن أن الضرر البالغ الذي كانت تلحقه بها
الأنهار ، ولم تكن غلة الأرض على العموم بوافرة ، إلا إذا استثنينا
المراعى الغنية ومزارع الرز في بعض بقاع لمباردية وبيمونته وحقول
الزيتون والكروم والبرتقال في بعض المناطق .

وفي حضيض تلك الطبقات ترى طبقة الدهاء البائسة نسيها
الحكومة ، ولم ينتبه إليها الأحرار ، وليس ما يخفف من ويلاتها
وشقائها سوى صدقات الأمراء والمستشفيات الشهيرة ودور
الأيتام ، ومن هذه الطبقة الفلاحون في صقلية وفي سهول لمباردية
والقرويون الذين ينوؤن بكثرة العمل والحاصدون المتنقلون من بقعة
إلى أخرى جرياً وراء رزقهم ، هؤلاء كانوا أتمس حالاً من العبيد

المستخدمين في الصناعة الإنجليزية ومن القرويين في إيرلنده . ومن الغريب أن هذا الشقاء الذي ابتلى به أهل الأرياف لم يلفت نظر الأحرار ؛ وأعرب من ذلك أن حركة تستمد قوتها من الطبقة المتوسطة وتقتبس تعاليمها من مدرسة الحرية القديمة تهتم كثيراً بمساوىء الحكومة أكثر من اهتمامها بأحوال البؤساء الاجتماعية ونذكر هنا أن الحكم النمساوى لم يخل من بعض الحسنات كالنظام القضائي الجيد الرفيع ، والمدارس الحسنة ، أما الحكومة في طوسكاته فكانت قوانينها الجنائية راقية وكانت تأخذ بطريقة التبادل التجاري الحر وتمتاز الحكومة في ييمونته بإدارتها النزيهة المستقيمة .

وليس في إيطاليا إذا استثنينا لمبارديه وفينيسية وبارمة أسلوب للتعليم الوطني ، وكانت القوانين في ييمونته ودويلات الكنيسة وفي مودينة مراتكة ، متأخرة ، قاسية ، تشين سمعة العدالة . وكانت المحاكم الاستثنائية في ييمونته ودويلات الكنيسة تحمي الإكليروس ولكل دولة محاكم سرية تراقب أية بادرة تبدو كمؤامرة سياسية ، وكثيراً ما تلجأ في مهمتها إلى التعذيب الروحي والجسماني . وتقف وراء هذه المحاكم السرية تشكيلات السييري (Sbirri^(١)) المخيفة الهائلة التي تضطلع بالمسئولية وحدها وأحياناً مستقلة عن الحكومة إلى حد ما ؛ تبث جواسيسها في المقاهي والساحر وبين الخدم ، وتستغل كراسي الاعتراف في الكنائس والمدارس والبريد لكشف الأحرار . فويل لمن يقع في يدها ،

(١) (Sbirro) سبيرو : موظف الشرطة السري .

فهي تستطيع أن تنهى خدمات الرجل في الجامعة والإدارة والتجارة كما أنها تتمكن من أن تمنعه من السياحة أو أن تحرمه من إرسال أولاده إلى الدراسة في الخارج فضلا عن أنها كانت تستخدم نفوذها لسحق خصومها الشخصيين .

فإذا علمنا ذلك كله تتضح لنا الأسباب التي أخرجت الطليان فأخرجتهم ودفعتهم إلى الاحتجاج اليأس وقادتهم إلى طريق المؤامرات . حتماً إن الاعتساف الشائن الذي ينزل بالأشخاص والاستهتار بالعدالة والقيود التي لا تطاق والتي فرضت على الحياة الشخصية كل ذلك حفز الطليان على الثورة . وإذا أضفنا إلى ذلك كله فقدان الحياة السياسية في إيطاليا تجلى لنا سوء الحالة إذ كيف يرضى الإيطاليون أن يروا أن لفرنسة وأسبانية والبورتغال مجالس نيابية بينما هم محرومون حتى من الاجتماعات ، ومن حق تأليف الأحزاب السياسية في بلدهم فضلا عن أن حرية الكلام والكتابة مقيدة . وانتقاد سياسة الحكومة محظور وليس لهم رأى في الضرائب المفروضة عليهم ولا يستشارون في المسائل الاشتراعية . إذن ليس من الإنصاف أن نلوم إيطاليا ذلك الحين ، لأنهم إذا كانوا غير متحلين بفضائل المواطن الاعتيادية ولأن عقيدتهم لم تتعد النظريات والمناهج وأنهم قصررا في الثبات وفي الناحية العملية فإن هذه النقائص كلها نتيجة لازمة لوضعهم الخيف الذي لم يكن يشجع بتثقيفهم ولا — بتدريبهم على احتمال المسئوليات .

الفصل السابع

الكاربوناريون الآخرون

١٨٢٣ - ١٨٣٢

ظن الناس حين باءت الثورات في نابولي وبمونتة بالفشل ،
و حين قُضى على المتآمرين المباردين أن الحركة الثورية في إيطالية
قد ماتت مع أنها كانت في حالة التحفز ، والحقيقة أنها دخلت في
طور جديد إذ بدأ رجال جمعية كنجلياتوره يقولون بالعدول عن
أسلوب الثورة العمياء على - الاستبداد - إلى حركة منظمة
حكيمه ، وليدة تفكير تعنى كثيراً بترقية المستوى العقلي ولا
تقتصر على إحداث تبدلات - سياسية .

وكانت الحركة الرومانتيكية في الآداب تعنى أكثر من مجرد
رقى أدبي ، وعلى العكس من ذلك المدرسة الكلاسيكية القديمة
فإنها ظاهرة أدبية أكثر منها سياسية واجتماعية ، وقد شجع
نابليون المدرسة الكلاسيكية لأنها تلائم أهدافه فهي مدرسة تخلو
في أسلوبها من معانى التقدم ، وليس لها مثل على ، وتقوم على
أساطير روما الإمبراطورية ، والمعلوم أن الألمان قد رجعوا حينذاك

إلى تقاليدهم القومية وأدركوا بعد درس أن للشعوب الأوربية الحديثة تاريخاً وقصصاً وحياة شعبية ، خليفة بأن تنظم فيها القصائد الحماسية والأشعار الفنائية . وأخذت هذه المدرسة الحديثة في ألمانيا تذكى الروح الاستقلالية ، وتلهم الشعراء المعاني الوطنية ، وتبث في الألمان روح الإيمان بالوطن الكبير . وقد وصلت هذه المدرسة التي اتسمت بادی بدء بطابع التجدد إلى إيطالية ، عن طريق ألمانية وإنجلترا بواسطة أساتذتها من أمثال بايرن ومكفرسن وشيلر وجوتي ، وكان من نتيجة ذلك أن فعلت الآداب الرومانتيكية في الطليان ما فعلت بالألمان إذا أرجعهم إلى ماضيهم ، وأظهرت لهم أن تقاليدهم التي جعلها (سيسموندی)^(١) شعبية ، إنما هي تقاليد جمهورية وحياة مدنية ناشطة وانتصارات ديمقراطية على الاقتطاعية الألمانية . وأخذت هذه الآداب تلهم (بركيت)^(٢) أغانيه عن شقاء إيطالية الدائم ، وكان (مانزوني)^(٣) حبر الآداب الرومانتيكية الأعظم ، وحملت رواياته الفاجعة بين سطورها تعاليم سياسية وأصبحت الأغنيتان التي نظمهما فيها أناشيد لمسير المتطوعين . وفي إحدى رواياته الشهيرة راح يبحث عن إيطالية

(١) Leonard Sismondi لئونادر سيسموندی مؤرخ واقتصادي

سويسري مؤلف كتاب تاريخ الجمهوريات الإيطالية .

(٢) Gioani Berchet جيوفاني بركيت كاتب وشاعر شعبي إيطالي .

(٣) Alessandro Manzoni الساندرومانزوني شاعر وقصصي إيطالي

التي حرّمها التسلط الأجنبي والطغیان الاجتماعی من الطمأنينة ، وكانت كتبه مشبعة بالروح الديموقراطية ، وكان يرى أن الزمن الذي يعيش فيه يلائم الثورة ، وأن البلد في حاجة إلى معالجة معنوية تؤدي إلى بعثه ثانية ، وأن المسيحية العملية والعدل وإنكار الذات هي التي تؤدي إلى جادة الحرية .

وأسس الكتبي الفلورنسي (فيوسّو) و (كابوني) أحد الأشراف الأحرار مجلة (انتولوجيا) سنة ١٨٢٠ ، وكانت على صلة وثيقة بمانزوني ومدرسته . وعلى الرغم من ضيق انتشارها فإن تأثيرها كان كبيراً ، وقد اشترك في تحريرها أهم الكتاب في إيطالية ومن بينهم (مازيني) وكان يرى إلى « تصوير الهيئة الاجتماعية الإيطالية ووصف حاجاتها الروحية والأدبية ومساعدة إيطالية على معرفة نفسها بنفسها » « وإيجاد مثل أعلى للطلّيان غير ضيق ولا محلى ولكنه مثل قومي واسع . » ومن ذلك يتضح أن المجلة أصبحت سياسية تتمدى حدود عمل مانزوني . وقد وجهت أعظم عنايتها إلى الإصلاحات الاجتماعية ، وكانت في أكثر المناسبات لسان الوطنيين المعتدلين يندرون به ويبشرون . والتف حول المجلة جماعة يتحمسون أكثر كثيراً لدانتي ، ومؤرخون كانت مدرستهم ترمي إلى جعل الآداب الرومانتيكية مجالاً للنغنى بأجاد إيطالية القديمة والدعوة إلى إحيائها وأخذ (كارلو تدويا) من نابولي و (قيصر بالبو) من تورينو و (كبّوني) من فلورنسة

يعلمون مواطنهم تاريخهم في القرون الوسطى . وكان (روسيني)
و (بركيث) ينظمان في منفاها الأناشيد الوطنية وينشئان
الكتابات الحماسية ضد البابا والأمراء . وقد ظهرت أول بوادر
القاومة من قبل الشاب (جيرازى Guerrazi)^(١) المحامى فى
ليفورنه ، وكان هذا الكاتب كالأخرين يقتبس رواياته التمثيلية
ومسرحياته من الحوادث العظيمة التى جرت فى إيطاليا فى القرون
الوسطى ، وكانت كتاباته الشديدة تنبعث من قلب كريم ، ناظم
على الاضطهاد ، وينبعث من بين سطورها صوت النفير ، يؤذن بموعده
القيام والقتال ، وعلى الرغم من أن مازينى كان من أنصار الرومانتيكية
فإنه لم يقصر فى انتقاد الرومانتيكية الإيطالية ، وكان يرتأى أن
تصبح الحركة الرومانتيكية بأجمعها وطنية إيطالية . فالفروق إذن
بين مازونى ومازينى أن الأول كان يعتقد بالإصلاحات السياسية إنما
تم بإصلاح الفرد أولاً ولكن الثانى كان يرى عكس ذلك ويقول
بأن إصلاح الفرد دائماً نتيجة للإصلاحات السياسية ، ولذا فهو يود
أن تكون الرومانتيكية ساحة قتال للحرية والاستقلال .

وهكذا صارت الرومانتيكية موضع نقاش تنفرع منه مدرستان
حرتان فى السياسة الإيطالية ، وكانت فى الوقت نفسه بشيراً
بتكوين إيطالية الفتاة والوطنية المعتدلة ، إلا أن تأثيرها فى مجال

(١) Guerrazi كاتب وسياسى إيطالى .

السياسة لم يظهر إلا قليلا ، ذلك لأن مائزوني كان يرى أن الإصلاح الأدبي يحتاج إلى الزمن ، أما مازيني فكان إذ ذاك مجهول الاسم في السياسة وكان الكاربوناريون لا يزالون يقبضون على ناصية الحركة الإصلاحية . ولما فشلت الثورة في نابولي نقلوا مقرهم الأعلى إلى باريس ، كعبة الديمقراطيين في أوربة . ولم تبق جمعية الكاربوناري الإيطالية لحما ودما فرغب رؤساؤها (لافايت وبيه والأمير لويس فليب) في تأسيس عصبة من الأمم اللاتينية تقف في وجه الحلف المقدس . وقد أضاعت الجمعية حماسها الأولى بعد أن أصبحت لا تمثل إيطاليا وحدها بل فرنسه أيضاً ، وفقدت أهدافها الدينية والأخلاقية ، وشعرت بأنها غدت أداة بيد رجال لا يتحمسون للديموقراطية إلا قليلا .

وعلى الرغم مما بين الكاربوناريين والرومانتيكيين من خلاف ، فإن الحقد على النمسة كان يؤلف بينهم . وكانت حركات سنة ١٨٢٠ — ١٨٢١ قد سوغت النمسة الادعاء بضرورة مراقبة السياسة الداخلية لشبه الجزيرة ، وجعلت نفسها بعد مؤتمر (لايباخ وفيرونه) الوصية التي اختارتها الدول لحماية العروش في إيطاليا ضد الثورة ، وساعدتها على ذلك الظروف السياسية في أوربة حينذاك . ثم شرعت تعمل على تقوية مركزها بعد أن أمنت من كل تدخل خارجي ، فراحت قواتها تحتل نابولي وانكونه ، وأخذت تطالب بإلحاق طوسكانه إذا أصبح آل لورين بلا عقب ، وأخذ

عملاؤها من الجواسيس والكرادلة والضباط والقضاة يعملون في كل دولة لحسابها . وعلى الرغم من أن الملوك والأمراء في إيطالية كانوا يتهافتون على طلب المعونة من النمسة حين تنشب الثورة في بلادهم فإن حماسهم كانت لا تتحمل مزاعم النمسة في أن يكون لها الحق في السيطرة عليهم . فأحبطت مساعي ييمونته وروما مساعي النمسة في تأسيس عصبة يريد مشتركة ، وأخذ شارل فليكس ملك ييمونته وفرنسوا الأول ملك نابولي يدبران الدسائس لسحب جيوش الاحتلال ، أمادوق مودينه فرسم خططه لتوسيع ممتلكاته لحساب النمسة ولقي في الكنيسة حليفا له .

وكانت جمعيات السانفيديست الدينية على اتصال شديد بجمعية (كلدويرارى) في نابولى والجمعية الكاثوليكية في ييمونته ؛ ومهما كان الرجعيون متعصبين فقد كانت الشرائع القومية تجعلهم ينظرون إلى النمسة شزراً . ويظهر أن ملك نابولى قد عقد نوعاً من الاتفاق مع الكرادلة الزيلانتى في بلاط البابا ، كما أنه اتفق في الوقت نفسه مع ملك ييمونته لتقسيم إيطالية مجدداً تقسيماً لا يرضى النمسة ولا أسرة لورين المالكة في طوسكانه ، وفي سبيل ذلك أخذ يتقرب من الكاربوناريين ولا سيما فرع هذا الحزب من جماعة Guelfi الذى ظل مرتبطاً بالبابوية يريد أن يجعل منها قاعدة للحركة القومية .

وعملت هذه الأحزاب على بث روح الاستياء بين الشعب حتى أصبح الانفجار أمراً لا بد من وقوعه إن عاجلاً أو آجلاً . وكانت دويلة الرومانى الملجأ الذى تركزت فيه كل المؤامرات ، وحال دون نشوب الثورة فى دويلات البابا وجود حكومة (كنسالفى) فى روما وعدم انحياز جيشها الى الكاربوناريين ولكن سوء الإدارة فى هذه الدويلات بلغ حدّاً لا يطاق . وحدث فى مثل هذه الظروف أن مات البابا . فسارعت النمسة وفرنسه إلى السعى الحثيث لانتخاب البابا من أنصارها ولكن البابا الجديد جاء خصماً للنمسة ثم مات بعد أن حكم ست سنوات ، فبذلت النمسة كل جهدها فى بابا من أنصارها ولكن لم يلبث أكثر من سنة واحدة حتى مات فسارع الكرادلة الزيلانى أنصار فرنسه إلى انتخاب مرشحهم سنة — ١٨٣١ باسم جرجوار السادس عشر .

وفى عهد هذا البابا بلغ الشعب فى الولايات البابوية حده الأقصى . وكان الكاربوناريون قد انبثوا فى الايلات الواقعة وراء الأبنين وأخذ الموظفون وأفراد الشرطة أنفسهم ينتمون إلى الجمعيات السرية ، ونشبت الثورة فى بعض المدن جهاراً ، واستطاع الكاربوناريون فى باريس أن يقبضوا على زمام — الحركة فى الشمال وفى الوسط . ولما ارتقى الأمير (لويس فليب) على عرش فرنسة تبنى المؤامرة الإيطالية فانتشرت بسرعة حتى إن الدوق فرنسوامير مودينه كان مستعداً أن يحارب النمسة أو أن يحمل على الشروع باقتسام

أملاك البابا شريطة أن تساعد فرنسا . وراح يتشاور مع رؤساء الأحرار في مودينة في هذه الأمور حتى إن وطني شمال إيطاليا البسطاء أخذوا يرون فيه الرئيس الملكي المنتظر . وقامت فروع الكاربوناري في بولونية وروما تدبر العصيان وحددت وقت الانفجار في بداية شباط « فبراير » إلا أن فرنسوا رأى أنه ركب مركباً خشناً ، وهنالك ما يدل على أنه خان شركاؤه اجتذاباً لعطف النمسة ، ولما نشب الاضطراب في روما قبل أوامه وتمكنت الحكومة من قمعه قرر الدوق فرنسوا العمل فأحاطت جنوده ليلة ٣ شباط ١٨٣١ — بدار مينوتى من رؤساء الأحرار في مودينه وقبضوا عليهم ، وفي اليوم التالى ثارت بولونية وانضم إلى الكاربوناريين كثير ممن لم يكونوا يتحمسون لهم أملاً في الخلاص من حكم الكنيسة فتآخى الجنود والثوار أو أنهم انسحبوا خائفين ، أما فرنسوا فلما أطلع على هذا الخبر فر هارباً ومعه المقبوض عليهم وسارت خلفه دوقه بارمه ، وأصبحت بذلك البلاد من بولونية إلى بياسنزه في أيدي الأحرار ، وكذلك التحقت الرومانى أيضاً بالثورة التى اندلعت لهما في أنحاء كثيرة وامتدت مسافات شاسعة .

وحين تقدم جيش الأحرار بقيادة (سركونيانى) اندلعت لهاب الثورة في جميع ممتلكات البابا ، ومال موظفو البلديات ومأمورو الدولة إلى الأحرار حتى إن كثيراً من الرهبان وبعض الاساقفة اظهروا ميلاً نحو الثورة ، وأعلنت الحكومة المؤقتة في

بولونية الغاء حكم البابا، وأمرت بالشروع بالانتخابات لعقد مجلس الأمة، وقد وصل إلى بولونية مندوبون من جميع الأنحاء وعينوا أهدافهم القومية في تلك الحركة، فأطلقوا على المجلس اسم «مجلس نواب الايالات الإيطالية المتحدة» وفي اليوم التاسع عشر من شهر شباط حينما عسكر جيش سركونيانى على مقربة من روما طلبت إليه حكومة بولونية أن لا يتقدم لأنها كانت تشك في صداقة أهل روما. وكانت الحكومة في روما على غاية من الارتباك، وليس لديها من القوة ما تستطيع بها المقاومة، وحدثت اضطرابات في المدينة نفسها فتأهب البابا لترك المدينة واستعد وزيره الأول برينيتى لمفاوضة الثوار.

وفي هذا الوقت الحرج كانت القوات النمسية في طريقها لإنقاذ السلطة البابوية من موتها المحتم، وكانت الثورة قد اعتمدت على مساعدة فرنسة بأن تحميها أمام كل تدخل خارجى، ولكن المبدأ الذى اتفق عليه في ثورة تموز السابقة يقضى ألا تتدخل دولة في الحوادث الداخلية لأية دولة أخرى، من أجل ذلك أعلنت فرنسة أنها لا تسمح بإخلال ذلك الأساس، وكانت قد ساعدت اللاجئين الطليان على الدخول في الرومانى، ووعدت بأن تشهر سلاحها في وجه النمسة إذا تدخلت هذه في شؤون الطليان الداخلية إلا أنها أرسلت في الوقت نفسه إلى مترنيخ رسالة سرية تؤكد له الأهمية لما صرحت به. فاستولى النمسيون بسهولة على بارمة ومودينة،

وعاد الدوق بحراسة الحراب النمساوية ، وكان أول عمله أن صلب مينوتى زعيم الأحرار فى مودينة . أما الجنرال زوكى قائد جيش الثوار فى مودينة فانسحب إلى حدود الرومانى وبدلاً من أن تسمح حكومة بولونية بدخول الجيش الثائر فى بلادها فإنها تمسكت بأساس « اللاتدخل » ، وانتظرت عبثاً مساعدة فرنسة ثم اعتبرت جنود زوكى محاريين ، فجردتهم من السلاح ونقضت بذلك عمل المجلس فى إطلاقه اسم أيلات إيطاليا المتحدة ، على المناطق الثائرة ، ولم يلق النمسيون أية مقاومة فى احتلال بولونية ، إلا أنهم حين توغلوا فيها اصطدموا بجيش زوكى الضعيف فارتدوا على أعقابهم ، بيد أن حكومة بولونية الموقفة كانت قد استسلمت أمام رسل البابا لقاء وعد ضعيف بالمغفرة ووقعت شروط الهدنة وتسريح جنود زوكى وسركونيانى ؛ وبهذا انتهت الثورة على الصورة المخزية بعد أن دامت ثلاثة أسابيع .

ولما أخضع النمسيون البلاد لحكم البابا أعلن برنيتى رئيس حكومة البابا فى روما أن دوراً جديداً للحكومة روما سيبدأ ، واستهل هذا الدور برفض شروط الهدنة وإصدار الأمر إلى جنوده بقتل أهل ريمنى إحدى المدن الثائرة ، ولما انتهى دور الثورة وبدأ دور المناورات السياسية بين الدول لحماية ممتلكات البابا أخذ الرأى العام فى فرنسة يبدى استياءه من كون النمسة وحدها تأخذ على عاتقها حماية البابا ، وأصبحت سياسة فرنسة تستهدف اجلاء

التمسويين عن الرومانى وحث البابا على القيام بالإصلاحات لتهدة
الخواطر فى بلاده . أما مترنيخ فكان يريد أن يساعد البابا فى مقاومة
الأحرار ولم تطق الدول الأخرى أن ترى القضية أصبحت نزاعاً
بين فرنسا والنمسة فاجتمع ممثلوها فى روما للنظر فى كيفية حمل
القوات التمسوية على الانسحاب من الميدان الإيطالى ، والعمل
للقضاء على مساوىء الحكومة التى كانت سبب الاضطرابات ؛
وعليه فقد أخبرت إنجلترا وفرنسة وبروسيه على ضرورة القيام
بإصلاحات واسعة ولكن النمسة وروسية خالفتا فى ذلك ثم
تظاهرتا فيما بعد بالموافقة ووقعتا مذكرة قدمتها الدول للبابا تطلب
إليه تعيين موظفين علمانيين فى الوظائف المدنية والمحاكم ، ولعل إنجلترا
الوحيدة التى كانت صادقة فى توقيعها المذكرة ، وسرعان ما أخذت
النمسة وروسية تتأمران على المذكرة ، فاكتمى برينتى بالوعد
بتأسيس المجالس فى الولايات وتوظيف العلمانيين ، وانسحبت على
ذلك القوات التمسوية من ممتلكات البابا .

وشاهد الناس انسحاب التمسويين وسرعان ما شبت نار الفتنة
فى الرومانى ثانية ، وامتنع الناس عن دفع الضرائب واستمالت
الحكومات فى بولونيه ورافيته وفورلى ، وكان أهل الرومانى على
استعداد لأن يتخلوا عن الانفصالية على أن تقبل روما المنهج
الإصلاحى المعتدل . وكان جواب روما على ذلك أن أمرت بإغلاق

الجامعات سنة وزادت ضريبة الأملاك . فاجتمع مندوبو الولايات الثلاث وعقدوا المجلس ، ومعنى ذلك أنهم جهرُوا بالعصيان ، وشجعت الدول باستثناء إنجلترا برنيتى على أن يطلب إلى الثوار الخضوع بلا قيد ولا شرط . وكانت فرنسا تصر على أن يجرى قمع الثورة من قبل جنود البابا خشية تدخل جنود النمسة .

فوجه برنيتى جيشاً قوياً لضرب الثوار وقد استطاع بعد مقاومة الثوار العنيفة أن يتغلب في سويسنة بدك المدينة بكنائسها ، ونهبت مدينة فورلى ، وأوشكت بولونيه أن تكابد المصير ذاته لولا أنها استقبلت القوات النمسية حين اقتربت منها باعتبارها حامية فأصبحت في مأمن من شر القوات الباباوية .

علمت فرنسا بذلك فأرسلت هى أيضاً جيشاً لاحتلال أنكونة . فحيا الأحرار الإفرنسيون هذا العمل واعتبروه ممهداً لحرب استقلالية لإنقاذ إيطاليا ، ولما دخلت القوة أخلى قائدها سبيل المسجونين السياسيين بينما كان الجنود ينشدون نشيد المارسيز ، ولما هدد برنيتى بقطع العلاقات السياسية مع فرنسا ولوحت روسية لفرنسا بالحرب خمدت حماسة الحكومة الفرنسية وتفاهمت مع النمسة على ضريح آمال الأحرار .

فشلت الثورتان فى الرومانى لأن الذين قادوا الحركة فيهما لم يكونوا ذوى خبرة ، وكان معظمهم من — الحقوقيين والمعلمين

الذين يجهلون خفايا السياسة والذين كانوا يحاولون تحريض الناس
بالأمثال والحكم غير آبهين بالقوى المعنوية التي هي روح كل ثورة
وكانوا بعيدين عن فهم روح الشعب وكان الرئيس أوجيني طاعن
السن ، ضعيفاً ولم يكن الجنرال زوكي يثق بالمتطوعين ، أما الجنرال
ارماندى فكان يبحث عن الوحدة الطليانية كأنما يبحث عن
طوبى ، فليس غريباً إذن أن نرى الشعب الذى حيا الثورة بحماسة
أبان نشوبها عاد غير مهتم بها بعد فترة قصيرة .

الفصل الثامن

مازيني وإيطالية الفتاة

(١٨٣٢ — ١٨٤٤)

لقد كانت خيبة مرّة تلك التي منى بها الأحرار واعتبر شبابهم هذا الفشل إهانة لهم ، إذ كيف استطاع بضعة آلاف من النمساويين أن يسحقوا الوثبة القومية بتلك السهولة ، والأنكى من ذلك الموقف الجامد الذي وقفته الجماهير من الثورة ، أضف إلى ذلك عجز الرؤساء الذين برهنوا على أنهم غير أكفاء لثل هذا العمل ، وهكذا فإن الكاربونايين قادوا الثورة مرتين وفشلوا في قيادتها ، وإذن فلا بد للحركة من تنظيم جديد يكون أكثر حيوية وأعظم كفاية ، وهنا يأتي دور (جيزنة مازيني) الشاب الناقد الأدبي الذي ترأس ذلك التنظيم .

ولد مازيني في جنوة سنة ١٨٠٥ ، وكان لا يزال غلاما حينما اشترك في تحرير مجلة أنتولوجيا ، ثم اشتهر بخطته الثورية التي وضعها في سجنه في قلعة (سافونة) ، وكان يرى أن سبب فشل ثورة الكاربوناريين ناشىء من أن الرؤساء الذين تولوا زمامها كانوا رجالا محدودى الكفاية والإبداع ، فانتخبوا للرئاسة أناسا

لا تؤهلهم مزاياهم للعمل ، وإنما روعى فى اختيارهم إما شيخوختهم أو علو مرتبتهم ، ولم يكن لديهم أى منهج معد لياشروا تنفيذه فور إسقاط الحكومات المستبدة ، ولم تكن لهم أهداف اجتماعية اللهم إلا فيما يتعلق بحرية الصناعة وطريقة الاشتراع والتعليم ، وكان من الممكن أن يكون النجاح حليفهم لو تولت الأمور حكومة حرة ، فالاستبداد بنظر مازينى لا يسحق إلا بثورة يتولى زمامها رؤساء مملوون إيماناً وعزماً ، وكان يعتقد أنه قد آن الأوان لبروز أفكار جديدة ورجال جدد ، وكان شعاره فى ذلك : « اتركوا المجال للشباب » ثم يؤيد ذلك بقوله « ضموهم على رأس الثورة وأفهموهم بأن عليهم واجبا نبيلًا » يجب أن يؤدوه ، وأذكوا فى نفوسهم نار الحماسة ، وأقنعوهم بمقدرتهم ثم اقدفوا بهم فى وجه النمساويين .

أطلق مازينى على تنظيمه الجديد اسم إيطالية الفتاة وجعله سرىا وطلب إلى الأعضاء أن — يعملوا حسب اقتناعهم الشخصى أى أنه لم يطالبهم بالطاعة العمياء التى يتطلبها الكاربوناريون من الأعضاء ، وكان يرى أن تستهدف سياسة تربية الشعب إلى تربية ثقافية واجتماعية ، وألا تفر عملها على تحرير إيطالية دون العمل فيما هو أبعد من ذلك . ولما هرب من سجنه سنة ١٨٣١ والتجأ إلى فرنسا ، وراجت كتاباته فى جميع أنحاء إيطالية ، أخذت مدرسته الجديدة تقوم مقام الكاربونارى ، إذ خلب منهجه الشباب الطليانى

الذين كانوا ينتظرون بفارغ الصبر ظهور الزعيم . وأخذ أنصاره يزدادون يوماً فيوماً ، وكان يعظ تلامذته ويطلب إليهم العمل باتحاد ونشاط ، وبذلك يتم الاستعداد للثورة بالعدة الكاملة والهمة العالية . يرى أن الثورة لا يمكن أن تنجح من دون اشتراك العامة فيها ، أى أنه كان يعمل في سبيل شعبية الحركة ، وكان يطلب إلى الأحرار بأن يضعوا الأهداف الاجتماعية نصب أعينهم ، ويقول لهم : « قولوا للشعب إنكم تريدون إنقاذه من استبداد الملوك والأمرء ومن إهانة الموظفين ومن اضطهاد الأشراف والأغنياء ، وحين ترونه أخذ يتململ حينئذ فقط ، وآسوا وجوهكم شطراً لمبارديه وبشروا بالحرب ضد التمسويين » ولم يكتف مازينى بخطابه للأحرار بل إنه وجه نداءً حاراً للكتاب طلب إليهم فيه أن يتفرغوا للعمل الثمر ، وأن ينفذوا بأدبهم إلى قلوب الشعب ، وأن يذكروه بتاريخه في الكتب والنشرات ويبينوا لهم أن هدف إيطاليا الجديدة هو بعث إيطاليا الديمقراطية المنظمة .

فإيطاليا الجديدة على هذا الطراز يجب أن تكون جمهورية غير مجزئة ، لأن حانة إيطاليا وتقاليدها وجميع ذكرياتها الخالدة متمركزة في فكرة الجمهورية .

يرى مازينى في الجمهورية مثلاً أعلى للحكم الكفيل بإلغاء كل الامتيازات ويجعل الاهتمام بشئون الفقراء من أول واجبات الدولة

ففي الجمهورية يفتح العلم آفاقاً واسعة للرقى والتقدم ، واقتنع مازينى بأن الشعب إذا وضع هذا نصب عينيه فلسوف يهب بأجمعه لطرد النمساويين .

وكانت الوحدة الإيطالية في نظر مازينى أتمنى من الجمهورية . وقليل من الناس من يعتقد بإمكان الوحدة حينذاك ، لأن الحياة الإقليمية كانت قوية جداً ، ومع أن الأحقاد بين الأيالات كانت آخذة بالتقلص إلا أنها لا تزال مستحكمة في النفوس ، حتى يستحيل زوالها في جيل واحد . فكل عاصمة تفتخر بيلاطها الصغير وكل جيش مرتبط بأميره ولا يعبأ بإيطالية . أما البابوية فظلت الخصم الذي لا يقبل التفاهم حول بعث دولة إيطالية عظيمة ؛ أما آل صافويه فقد استهدفوا مملكة في شمال إيطاليا ولم يفكروا باندماج الوسط والجنوب بالشمال . لقد كان مازينى مؤمناً بإمكان بعث إيطالية الموحدة التي تقود الشعب من فوق الأحداث الراهنة نحو هدف أرفع من خطة الاتحاد الذي كان ما يزال الأمل القوي الأعلى نحو شيء كان يبدو عسيراً بعيد المنال . وبشر مازينى برسالة الوحدة حتى أصبحت إنجيل الأمة وسرى إيمان مازينى إلى الناس الذين أخذوا يعتقدون أن إيطاليا لن تستطيع أن تكون قوية إلا بالوحدة وحين تصبح روما عاصمتها فستبوء مركزها في مصاف الأمم الأوروبية .

وبدهى ألا تكون إدارة الثورة لمثل هذه الأهداف غير جمعية

سرية ، على أن الجمعيات السرية لم تحقق آمال مازينى كلها لأنها على العموم لم تكن تستطيع أن تقف أمام ذهب الحكومة وسلاحها . ومع ذلك فإنها استطاعت أن تقوم بدعاية واسعة النطاق ، ولقد قامت في وجه مازينى منذ شرع يعمل إلى آخر أيامه الصعوبات التي تجابه كل ثورة ، وليس ممكناً أن يقف شعب أعزل غير منظم أمام الحراب والمدافع . ولم يقدر مازينى رغم عزمه أن يدير دفعة الأمور ، وقد حملة الأمر الواقع على الاعتراف بشدة محافظة إيطالية ومع هذا كله فإنه خلق إيطالية إذ استطاع بدهائه ورأيه أن يدفع الناس إلى الأعمال العظيمة ، الأمر الذي لا يتم إلا بالتجرد عن المنافع . وكان من تأثير رسالة مازينى أنها أذكت نار القومية الإيطالية ووجهت السياسة الإيطالية نحو العمل للاستقلال ، وجعلت الاحتلال الأجنبي أمراً لا يجوز التساهل معه أبداً ، وكان مازينى كأكثر الكاربوناريين يعتبر ييمونته مصدر الشروع في الحركة القومية ؛ فأخذ أكثر الوطنيين بصيرة — يعتقدون أنها مهد آمال إيطالية ، ويدعون إلى هذه القاعدة عدا تلك المقاومة العنيدة التي كان بيت صافويه المالك يبدىها ضد محاولات النمسة لاستمالاته إلى جانبها . والقوة العسكرية في هذه المملكة الفتية وتشبع مدينة جنوة بحب الحرية ، وقرب ميلانو من الحدود النمساوية وإيمان الأمير شارل البرت اليقظ ، كل هذه العوامل جعلت ييمونته منارة العاصم الإطالى وشجعت الآمال في إيطالية

تلك الثورة التي نشبت في أسبانية وبلاد اليونان ، فكانت ذات صلة بحركة السكاربوناري الجديدة . ودبرت سنة ١٨٣٠ مؤامرة للحصول على الدستور اشترك فيها رجال من الجيش ومن المحامين ، وفكر المتآمرون ثانية في دعوة شارل البرت إلى رعاية الحركة ، إلا أن آمالهم ذهبت أدراج الرياح فأجل تنفيذ المؤامرة ثم اطلعت عليها الحكومة فقضت عليها .

وفي تلك الأيام مات ملك ييمونته وارتقى العرش شارل البرت إلا أن ارتقاءه لم يتم من دون معارضة ، فقد أرادت النمسة أن تستفيد من موت الملك من دون عقب فرشحت الدوق فرنسوا أمير مودينة زوج ابنة الملك السابق فيكتور عمانوئيل ، إلا أن فرنسة هددت بإعلان الحرب إذا تبوأ العرش أمير نمسوى . وقد تردد مترنيخ كثيراً عن رضائه من تبوى شارل البرت العرش ولذلك فإنه حين عودته من فرنسه اضطره مترنيخ إلى البقاء في فلورنسة مدة طويلة واقترح على دول الحلف أن يتعهد أمام مؤتمرها برعاية القانون المتعلق بالنظام الملكي والمحافظة عليه ، ولم يساعده مترنيخ على العودة إلا بعد أن أثبت بأنه حارب مع الجيش الإفرنسى ضد الأحرار الأسبان . ولما عاد إلى تورينو وعده في حكم الملكة باستشارة المجلس الرسمى وأن يحافظ على قانون الملكة الأسامى . ولم يكد شارل يرتقى العرش حتى بدأ عهده باضطهاد الأحرار مما دعى الشاعر الموسيقار بركيت أن يكتب من منقاء : « تحت أى سماء تكون أيها الخائن فلعمنة المنفى تنزل عليك » .

قضى هذا الملك حياته فى مناوآرات مع الأحرار ، فكان مستبدآ قلبآ وقالبآ ، وكان يصرح بأنه لا يقر الثورة أبداً ، وكان يذكر الحكم الدستورى بحجة أنه يؤدى إلى تشاحن الأحزاب ويخل بالانسجام القومى . ورغم كونه مستبدآ فقد كان يخضع أمام كل وزير ذى عزيمة ، وكان يتجنب اتخاذ القرارات الحاسمة ، لذلك رعى بالتردد . وكان موقفه من مجلس الوزراء موقف الجبان ، فكلمأ رأى معارضة أجل القرارات ورتب الأمور بصورة يضطر الوزير معها إلى الانسحاب خشية مناقشته « أليس من عجائب الدهر أن يعتبر هذا الملك زعيماً لحركة كان يكرهها ؟ ولما جلس على العرش توقع الأحرار منه اصلاحات عظيمة ، تستهدف الخير » ولو أقدم على مساعدتهم لكان منح الدستور للأمة ، وكان يعلم أن النمسة تشهر الحرب عليه إذا رأت ييمونه تسير على النظام الدستورى ، ومن جهة أخرى كان متمسكاً باليمين الذى أقسمه أمام الحلفاء فذلك أبقى فى الوزارة الأعضاء الرجعيين وعين مجلساً للدولة لا قيمة له ، وخابت آمال البلاد حين رأت الوزارة الرجعية ، ووجه ما زينى رغم نزعته الجمهورية إلى الملك رسالة يطلب إليه فيها بأن يكون على رأس الوطنيين وربما كان ما زينى غير مخلص للملك بكتابته تلك الرسالة إذ كان يتوقع أن رفض الملك ما كلفه إياه — يزيل من نفوس الطليان الثقة بالملك والاعتماد عليه ، وكان جواب الملك أن أصدر على صاحب الرسالة حكماً صارماً ، فسا كان من ما زينى إلا أن

دعى إلى الثورة وكان فريسة أوهم المنفى إذ خيل له أن البلاد على أبواب الثورة فيكفى أن تنفخ إيطالية الفتاة في صورها حتى يهرع أفواج المتطوعين للحركة ثم ينظم الجيش البيمونتي إلى الشوارع ويستولى على لمبارديه ويكون شارل البرت بين أمرين : إما أن يترأس الحركة وأما أن يرضى بالخلع . فما أسرع ما اكتشفت الحكومة هذه المؤامرة ولجأت إلى القسوة في البطش برجالها . فتألفت المحاكم العرفية وجاء دور من الإرهاب يقوم على التعذيب والقتل ، وكان الملك بنفسه يلح على المحاكم بإصدار الأحكام القاسية ويعدهم لقاء ذلك بالأوسمة ، وكان هذا الدور من أسود صحائف التاريخ في ييمونته لكن مازينى لم يحفل بكل ذلك وأعد ثورة ثانية واجتمع في سويسرا سبعمائة من المبعدين من جميع الأقطار وزحفوا على إيالة صافويه وكان على رأسهم الجنرال المنفى « رمارينو » بينما حاول — غربيا لدى البحار الشباب أن يثير الأسطول ، وأضاع بطاء رمارينو وعجزه الفرصة وتشتت القوة أثر بعض مناوشات لم ترع فيها الأصول والدقة وذلك في شباط سنة ١٨٣٤ .

ونشطت آمال الأحرار والديمقراطيين في حزب إيطالية الفتاة في نابولي عقيب موت الملك فرديناند سنة ١٨٢٥ وارتقاء ابنه فرنسوا على العرش ، وكان قبل ذلك نائبا للملك في صقلية فشجع فيها بعض الأفكار الحرة واشترك في مؤامرة سنة ١٨٢٠ ، ولكنه لم يكد يتولى الملك حتى انصرف إلى المذات تاركا شؤون الدولة بيد المحسوبين

عليه ، وأمعن نائب الملك الجديد بصلقية في اضطهاد الأحرار ونشب عصيان في « البلاتو » فأمرع قائد كان قد اشترك في ثورة ١٨٢٠ إلى قمع العصيان بالنار والحديد وقطع رؤوس — الزعماء وعلقها على أبواب بيوتهم ، ورغم ذلك فقد ظل الشعب يطالب ملوكه بالإصلاحات ، فلم يكد يتولى فرديناند الثاني العرش بعد موت أبيه فرنسوا سنة ١٨٣٠ حتى انتقد على ملأ من الناس سياسة أبيه فنشطت الآمال ثانية وجهل الشعب أن هذا الأمير لم يخرج عن كونه من أسرة بوربون العاتية ، ولما كان الملك متدينا فقد تسلط الرهبان على البلاط وأخذوا يأمرسون وينهون ، فخلوا محل المحظيات اللاتي كن يحكمن في عهد أبيه ، ومع هذا فإنه أجرى بعض الإصلاحات في السنوات الأولى من حكمه ليصلح بعض ما أفسده أبوه من الأمور فاهتم بالسكك الحديدية وأعاد تنظيم المالية فزادت الثقة بالتجارة وقويت آمال الأحرار حتى أن بعضهم في مدينة بولونية . طلب إليه أن يتزعم الحركة القومية ، ورغم رفضه طلب البابا إليه باتخاذ التدابير ضد الجمعيات السرية فإنه اقترح على الحكومات الإيطالية التحالف في سبيل قمع الثورة ، فهذا جزاء الأحرار الذين علقوا عليه الآمال ، وكان من جملة ما طلبه إلى المعلمين أن يعلموا تلاميذهم أن الثورة أمرٌ من القتل وأن الملك بجل من تعهده بتحديد سلطاته ، وكان الوزراء ألعبوبة بيده فشجع الخصومات الشخصية فيما بينهم ليجعلهم طوع أمره .

لم تنظم طوسكانه في الحركة إلا قليلا ، وحين غيرت الشرطة فيها خطتها المعتادة وأخذت تستعمل الشدة عم الاستياء حتى أن الحكومة نفسها طلبت إلى الشرطة أن تخفف من شدتها وأن تستعمل اللين ، ولم يرق ذلك في أعين النمسة ولولا اعتراض الوزير الأول في طوسكانه ومقاومته لكانت القوات النمسية قد — احتلت البلد . ومع ذلك اضطرت الحكومة إلى منع مجلة انتولوجيا من الصدور بإيحاء من النمسة وروسية .

أما في مودينه فكانت الرجعية هي السائدة وقد زاد عدد ضحايا الدوق فرنسوا في السجون والنفاس ، وكانت جريدة صوت الحق تنشر في أعمدها بضرورة التنكيل بالأحرار تقول : « إن الله قد خلق جهنم وأقرب الأمر إلى التقوى ذلك الذي يجعل من وزيره الأول جلاداً » ، أما الأحرار فيجب أن — يقتلوا كما يقتل أعداء الهيئة الاجتماعية ولو وافق قيصر روسيه لثم نفيهم إلى سيبيريا أفواجاً أفواجاً ، وكان حكم الشرطة واضطهادها يفوق الوصف فكانت تقبض على الأشخاص بلا سبب وتتحرى البيوت وتتدخل في الحياة الشخصية وهكذا وضعت الرعية في فزع مستمر ، وكان أقل تعبير عن الآراء الحرة يكفى لإزالة صاحبه من الوجود .

أما في دويلات الكنيسة فكان العهد الجديد الذي فتحه البابا جرجوار عهد اضطراب قائم ، وكان البابا يقاوم بنفسه كل مؤتمر علمي ويمنع تمديد السكك الحديدية في ممتلكاته لأنه يزعم أن ذلك

يخالف الدين ولأنه يعتقد أن السكة الحديدية تسهل مجيء الوفود المستاءة من الولايات ، ولكي لا يضطر إلى الاستنجاد بالنمسة عند الحاجة فقد قرر تأليف قوة أهلية تستطيع قمع كل ثورة ، فزاد (برنتيتي) عدد الجيش وشجع تأليف العصابات من المتطوعين غير النظاميين وأطلق عليهم اسم (سنتوريون) ، وفي مدة قصيرة زاد عدد هذه العصابات حتى بلغ الآلاف ، أضف إلى ذلك أنه كره أنصار البابا للأحرار قد جمع حولهم جماعات من المتشردين وكثيراً من الرجال ، فألفت قوة متحفزة للانتقام من خصوم الحكومة وللنهب ، وبانضمام اليسوعيين إلى هؤلاء اضطر الأحرار إلى السكوت ورأت البلاد أرباباً لا نظير له ولا سيما في دولة الروماني والمارك ، فامتنع القرويون السنتوريون من دفع ديونهم وهدد الممال السنتوريون رؤساءهم .

وكانت جمعية السانفيديست تبيع مساعداتها لهذا وذاك ، فتزيد في الطين بلة ، أما سلطان اليسوعيين القاهر فأدى إلى غاية الاضطراب والفوضى ، وقد انسحبت سنة ١٨٣٨ القوات النمساوية والألمانية من أرض الكنيسة وتركت رعية البابا تحت رحمة هذه الجماعات المستعصبة الظالمة ، وتجاه هذا الضغط التزايد قويت الجمعيات السرية وكتب (دازجيلو)^(١) : « إذا سألتكم فتى من أهل الروماني فيما إذا كان قد سجن ، فيجيبكم فوراً أما الآن فإنني أصبحت رجلاً

(١) سيمو دازجيلو أديب وسياسي إيطالي Massimo D'Azeglio

لأنى سجننت فلا يمكن ان أكون رجلا من دون أن أسجن » ،
حتى أن المحافظين أنفسهم من أهل أوربة قد سئموا هذه الحركة وشاع
في المدينة المثل الآتى . - « لا يمكن التفاهم مع الرهبان » . ومع
هذا فإن الأحوال لم تساعد حينئذ على الثورة سواء أكان ذلك
في روما أم في نابولى أم في بيمونته ، فاضطر ما زينى إلى الالتجاء
إلى سويسرة أولا ثم إلى إنجلترا متمسكا بمثله الأعلى في إخلاص
لا يتزعزع ، وكان الأحرار « دراندو وجيالدينى ومديجى وفانتى »
يحاربون فى صفوف الأحرار فى أسبانية والبرتغال ليصبحوا
قادة الحروب فى المستقبل ، أما غريبا لدى فقد سافر إلى
الملكات الإيطالية فى أمريكا الجنوبية عن طريق باريس وبروكسل
ولندن باذلا جهده لزيادة الأنصار ، أما الكاربوناريون فلم يذكر
إسمهم فيما بعد إذ انسحبوا من الميدان وتخلّى ما زينى برهة عن قيادة
إيطالية الفتاة فأوشكت تنظيماته أن تضمحل ، وأدى انتشار الهيضة
من سنة ١٨٣٥ إلى سنة ١٨٣٧ إلى ترك الناس شؤون السياسة
واهتمامهم بأنفسهم ، ولولا الحركة الأدبية لا نطفأت شعلة الحركة .
وقد أثار كتاب سلفيو باميكو « سجونى » حماسة القارئین .
أما شهيد سيلبرج الشاعر الموسيقار بركيت فكتب نشيده الخالد
إلى السلاح يا ايطالية إلى السلاح فقد بزغ فجرك .

أما « جرازى »^(١) فكان يبحث عن العظمة الإيطالية وبعثها

(١) فرانجسكو جيرازى أديب وسياسى إيطالى Francesco Guerazzi .

وأما كتب دازجليو فكانت تحت الجيل الإيطالي الحديث على أن يتخلق بالرجولة وأن يترك مراقبة الفواني وأن يتفرغ للأعمال الوطنية ، وكتب « كوليوتا وبوتا » تاريخهما الباحث عن كفاح إيطالية الحديث ، أما الروايات الهزلية التي ألفها (جستاف مودينا) فكانت تبث الأفكار الوطنية والآراء المعاكسة للبابوية على قدر ما كانت تسمح به الرقابة ، وأيقظت مآسى (نيكوليني) ذكريات القرون المتوسطة وذكرت الشعب بدموقراطيته القديمة ، وكانت تترنم بالحرية وتهزأ بالألمان وأنصار البابا ، أما أهاجى (جيستى) التي كانت تكتب نسخها باليد ويتداولها المثات فكانت تحمل على الأمراء والشرطة والمحظيات وتنفذ إلى عقول الشعب ، وكان جيستى هذا يمتاز بوطنية عميقة ويستهزئ بالذين يزعمون : « أن الفكرة التي تنبعث من قوميات مختلفة توسع الأذهان » : ويحجب بكبرياء على الأجانب الذين يذكرون إيطالية كأنها بلد ميت ويقول : « يا حبذا مقبرة كريمة تجعل الأحياء يغتبطون بها » .

فضلا عن أن نشرات مازينى الحماسية كانت تنتقل من يد إلى يد فتنفخ عزماً جديداً في الطبقات المثقفة بينما روايات مودينا الشعبية كانت تضرب على وتر شعبى حساس .

وقد بدأت فروع جمعية إيطالية الفتاة تتأسس تدريجياً رغم مخود الهمة ، وامتدت حلقات المؤامرات إلى باليرمو و نابولى وفلورنسة وميلانو وأخذ المنفيون في إنجلترا وفرنسة وأسبانية وكورسيكة

ومالطة والجزائر اليونانية يكاتبون أصدقاءهم الذين ظلوا في إيطاليا
وأُمسّت صقلية مركزاً للعصيان ، أما النزاع المديد بين أنصار
اللامركزية وأنصار الحكم الذاتي فقد انتهى بانتصار الآخرين ،
ولما عزل الملك نائبه المحبوب من الأهالي حسداً زالت الأحقاد بين
أحرار الجزيرة واتحد الجميع لمقاومة المستبد ، وانضم حزب —
الانفصال القديم إلى الحزب الجديد الذي يقول بادماج الجزيرة
بالجمهورية الإيطالية ، واجتمع في سنة ١٨٣٧ مندوبو الجمعيات السرية
في باليرمو للمذاكرة في شؤون الثورة ، وحين تفشى مرض الهیضة
«الكوليرا» في إيطاليا وامتد إلى الجزيرة وقضى على أربعين ألفاً من
النفوس في باليرمو ، فقد استغل الأحرار عقلية الشعب وقوا
الاعتقاد بأن الحكومة هي التي سممت المياه وبشروا بالثورة عليها
فهبت (مسينة — وكتانية وسيرا كوزه) ورفعت العلم الأصفر
شارة الاستقلال ، وفي سيرا كوزه فتك الشعب بالشرطة وبجميع
الأشخاص الشبهوهين فأرسلت الحكومة على أثر ذلك القائد
(لكاروتو) لإخماد الثورة فسلک سبیل الارهاب وحكم على مائة
منهم بالموت ومع أن ثورة صقلية حركة انفرادية فقد أظهرت
كيف يتطور الاستياء إلى انفجار واستفاد حزب إيطالية الفتاة
من ذلك حين نهض ثانية وأخذ يرسم خطط العصيان بإحكام
وتنظيم ، واعتزمت لجان الثورة في صيف سنة ١٨٤٣ عصياناً عاماً

في كل من بلاد نابولي والرومانى وطوسكانة إلا أنه كان كل قطر من هذه الأقطار ينتظر أن يبدأ الآخر بالقيام ففشلت الثورة .

ولما كشفت المؤامرة في بولونية ورافيته وخشى المتآمرون انتقام الحكومة اعتصموا بجبال الابنين ونظموا فيها حرب العصابات ولما لم يلقوا عوناً من أهل الجبال تفرقوا شذر مذر .

فال مازينى إلى رأى أكثر المتآمرين بصيرة وأقتنع بتفاهة هذه الحركات . وبرز حينذاك الأخوان (أتليو وأميليو) الشابان الشريفان من فينيسيه وكانا من ضباط الأسطول النمصى ، وقد اقتنعا بأن ما تحتاجه بلادهم هو أمثلة العمل الجرىء الحازم والفداء الصحيح ، وأرادا أن يجعلا نفسيهما المثال الحى للنشود وذلك بتنظيم حرب عصابات في القسم الجنوبى من جبال الابنين ، وقد بذل مازينى وآخرون جهدهم لملهما على العدول عما اعتزما عليه إلا أنهما لم يأخذا بالنصيحة وصما أذانهما عن سماعها وعن سماع توسلات أبيهما وزوجة أولهما آتيلو الفتاة . ففرا من الأسطول والتجأ إلى كورفو ثم أبجرا وبعض الرجال إلى إيطاليا وبعضا إلى مازينى بكتب بينا فيها خطتهما بالتفصيل ، وقد اعتمدا على الأمانة التى تمتاز بها دوائر البريد الإنجليزى إلا أن كتبهما فتحت فى دائرة البريد الانجليزية وأخبر اللورد ابردين الحكومة النابولية بأمر المؤامرة وتفاصيلها حتى إذا ما نزلت القوة الصغيرة إلى البر

قبضتهما فحكمت على الضابطين المذكورين بالموت بالرصاص ،
وقد هتفا حين نفذ فيهما حكم الموت قائلين « فلتحى إيطاليا » .
وكان لموتهما على هذه الصورة الشريفة تأثير عظيم في البلاد
إذ اهتزت البلاد من أقصاها إلى أقصاها وعرف العالم كيف يموت
الإيطاليون في سبيل وطنهم .

الفصل التاسع

المعتدلون

١٨٤٣ - ١٨٤٦

منذ أن أفل نجم الكاربوناريين كانت الحركة الديمقراطية والجمهورية التي تولى زمامها حزب إيطالية الفتاة قد بثت روح الوطنية الفعالة في البلاد إلى حد ما : وكان سبيلها إلى الوصول إلى أهدافها الدعاية بالكتب والنشرات والمجلات والحث على الثورة مهما كانت الظروف . ثم اقتنع رجالها بعد التجارب القاسية بلزوم التأنى في إشعال نار الثورة إذا كانت الظروف لا تساعد على ذلك ، فكان الحزب حامل راية الاستقلال في الإثني عشرة سنة الأخيرة .

وكانت فكرة الاستقلال والوحدة قد انبثت في نفوس كثير من المثقفين الذين لم يكونوا من حزب إيطالية الفتاة . فكان للبعض منهم أيضاً تأثير محسوس في بعث الفكرة القومية ، فرأى حزب إيطالية الفتاة نفسه أمام حركة قومية يقودها مثقفون تختلف طريقتهم في الحصول على الاستقلال عن طريقة حزب إيطالية الفتاة لأنهم كانوا ملكيين ينفرون من المؤامرات والوثبات الفردية ، ويرون فيها إسرافاً في حياة المهوسين وحجة

بيد الحكومات لاستعمال أقصى الشدة والمضى فى التدابير الاستبدادية العاشقة . من أجل ذلك فإنهم كانوا يرون أن يترأس الحركة ملك ييموته أو البابا ، وكانوا يطالبون الملوك بالإصلاحات لأنها هى فى حد ذاتها توصل إلى الهدف وإذا اعتبرنا رجال حزب إيطالية الفتاة أحراراً متطرفين فيكون هؤلاء أحراراً معتمدين . وكان المعتدلون يحملون طابع الآراء التى كانت تبثها فيما مضى الكنجلياتورة ومجلة أنتولوجيا وكتابات منزونى ، وكانوا مقتنعين بأن الزمن لم يحن للقيام بالحركات السياسية العنيفة ، وأن الأجدى فى هذه الآونة توجيه همه الأمة نحو التعليم والإصلاحات الاجتماعية ، وكانوا يدعون إلى الإكثار من المدارس وتحسين الزراعة ومد السكك الحديدية وإنشاء الصحف الأدبية وتأسيس الجمعيات العلمية ؛ وكان أول عمل قاموا به توجيه حملة شديدة على اللهجات المحلية فتوقفوا فى جعل اللغة الإيطالية الكلاسيكية لغة العلم والأدب فى جميع أنحاء إيطاليا ، ثم عقدوا المؤتمرات العلمية ، ومع أن هدف هذه الاجتماعات كان علمياً بحثاً ولكنها اصطفت بصيغة قومية ذلك لأن الأعضاء كانوا يمثلون دول إيطالية وحدها ، فالبحوث الاقتصادية مثلاً ولدت فكرة الاتحاد الجرركى ، والمسائل الاقتصادية أدت إلى السياسة ، والتدقيقات الجغرافية إلى المناقشات الحرة عن موقف إيطالية وهكذا انضمت هذه المؤتمرات العلمية إلى العناصر التى خلقت الفكرة القومية الجديدة .

ولم يوافق البابا ودوق مودينة على اشتراك رعاياها في هذه المؤتمرات وكان من نتائج هذه المؤتمرات أن أخذت السكك الحديدية تمتد في البلاد فتربط المراكز المهمة بعضها ببعض الآخر وتسهل الاتصال بين الطليان على اختلاف أقاليمهم وتنشط التجارة الإيطالية . وقد عبر « دازجليو » عن سياسية مد السكك الحديدية بأنها « نخط الحذاء الطويل » إشارة إلى إيطالية التي تشبه الحذاء في وضعها على الخريطة ؛ ومع ذلك فلم يتخلص أولئك المخلصون الاجتماعيون من تأثير السياسة فقد زجوا أنفسهم فيها رغم أنهم ذلك لأن مبادئ ما زيني كانت قد اختمرت وأصبحت ذات تأثير عظيم فألحبت النفوس بحب الوطن وشبعتها بآمال النصر والاستقلال . فكان جيستي مثلاً ينسف العروش بأهجيته أما جيرازي فكان يلهب بها القلوب ، وأخذت الأكرثية العظيمة من مثقفي الطليان الذين كانوا يكرهون الثورة ، ينضمون إلى المعتدلين .

وانقسم المعتدلون في بادئ الأمر إلى زمرتين الأولى كانت كاثوليكية قبل كل شيء أطلق أعضاؤها على أنفسهم اسم (الجلفي الجديد ، وأصبحوا من أنصار مدرسة منزوني الرومانتيكية وكانوا كازيني يبشرون بالواجب والثبات والدرس والأخلاق الفاضلة ، إنما كانوا يختلفون عنه بتبشيرهم بالحدود والتوكل وبما أنهم كانوا فاقدي الشجاعة الأدبية ، وجلين يخشون طريق الرقي الوعر ،

ضعفاء أمام المعارضة فكانوا يحملون بحياة مثالية تتصافى فيها جميع الطبقات حيث العدالة والرحمة تقنعان البابا والرهبان والأمراء معاً فتجعلهم يشرفون على شعب سعيد ومعتز بالجميل . وكان من هؤلاء (جيورتي) ؛ كان جيورتي راهباً من أهل تورينو وقد نفي من بلده في أوائل عهد الملك شارل ألبرت فأوضح آراءه في كتابه « تفوق الطليان المعنوي والادبي » نشره سنة ١٨٤٣ ، وكان يدعى بأن إيطالية ، ذلك البلد الذي أنجب دانتي وفيكو ونابليون يجب أن يكون دائماً وأبداً بلد الرجال النشطين ومهد العباقرة المبدعين ؛ وكان يقول ما دامت روما المسيحية قد علمت العالم السلم والحب اللذين خلقا الحضارة الحديثة ، وما دام الرومان هم الشعب المختار الذي بث فكرة العدالة فيجب على ايطالية أن تظل الأمة المنقذة والاخت الكبيرة للأمم والمركز المعنوي والعقلي للعالم ، ولن تنبأ إيطالية هذه المسكنة إلا بالاستقلال ، فالاستقلال وحده يستطيع أن يجعل البلاد في الصف الأول بين الأمم ، وكان جيورتي لا يؤمن بالوحدة الإيطالية زاعماً أن التجزئة التي أصابت إيطالية منذ أمد بعيد قد فعلت فعلها بحيث يتعذر إيجاد الوحدة بصورة سليمة ، أما تأسيسها بالقوة فجرمة وكان يرئى إقامة اتحاد لا وحدة بين الدول الإيطالية برئاسة البابا العليا — وكان يحزم بأن العبقريّة الإيطالية من حيث أساسها ملكية ، إرستقراطية ، إقطاعية ، وعليه فيحق للبابا أن يحتفظ بالسلطة الزمنية ، وراح

يطلب إلى الملوك والأمراء أن يجمعوا المجالس الاستشارية وأن يمنحوا الصحافة حريتها ، أما الأشراف فينبغي أن يكونوا جديرين بألقابهم وذلك بتسليمهم زمام الأمور وبتتركهم الامتيازات الاقطاعية وباحترامهم من دونهم ، وأما الرهبان فيجب أن يتعلموا وأن يتحرروا من الشبهات وأن يكونوا متسامحين نحو المذاهب الأخرى ومخلصين للملوك والأمراء والشعب فكان لكتاب جيورجى تأثير عظيم وفي رأيه أن البابا وملك بيمونته هما اللذان يمكن أن ينقذا الطليان ، وطبيعى أن ينتشر كتابه في جميع الأوساط فيرحب به الإكليروس والقوميون من رجال السياسة ولا سيما الأمراء من آل صافويه .

ثم يليه (ممياني) ، أوضح ممياني ، وهو من زعماء ثورة ١٨٣١ أراءه في رسالة نشرها في باريس سنة ١٨٤١ ، ورأى فيها أن إيطالية عاجلا أو آجلا سوف تنال استقلالها من دون مساعدة أجنبية وبعد حروب حامية يشنها أحد الملوك الطليان وعليه يجب أن تترصد الفرصة سنوات حتى تنشب الفتن في النمسة وفي الحين ذاته يجب علينا تربية الجماهير تربية وطنية تؤهلهم للمساهمة في الحركة ، على أن هذه الرسالة لم يكن لها كبير تأثير .

وكان رجال السياسة الذين لا يرون في البابا القدرة على إنالة إيطالية استقلالها يجدون ما ينشدونه في ملوك بيمونته ، وكانت سياسة الحكومة البيمونتية تعتبر الكنيسة فرعاً من فروع الإدارة

وكان معظم الأشراف في ييمونته يعتزون بماضى بلادهم ويؤمنون بقدرتها وكانوا يرثون الحقد التقليدى على النمسة .

وفي الوقت التى كانت فيه الزمرة الأولى من المعتدلين تتخذ كتاب جيورتنى إنجيلا لها ظهرت أراء الزمرة الثانية التى تؤمن برسالة ييمونته القومية فى الكتاب الذى ألفه قيصر بالبو بعنوان « آمال إيطالية » والذى نشر فى باريس سنة ١٨٤٣ ، وكان بالبو هذا تلميذاً لجيورتنى ومعجباً به ولكنه يختلف عن أستاذه بتعليق آماله على تورينو بدلاً من روما ، وكان كتابه موجهاً ضمناً للملك شارل ألبرت يحرك به وطنيته ويعدّه بأكليل المجد ويمنّيه بتوسيع البلاد بمد طرد النمساويين منها ، ومع ذلك فلم يوجه تلك الدعوة باسم الوحدة الإيطالية لأن البويرى فى الوحدة الإيطالية حلمًا خلاباً ويعتبر أن المستقبل السياسى يتوقف على الاتحاد لا الوحدة غير أن هذا الاتحاد لن يتم مادام النمساويون يحتلون البلاد ويقول : « إذا لم يكن هناك استقلال وطنى فكل ما ننشده من أمور طيبة لا يساوى شيئاً ، وأن مجرد احتلال الأجنبي أيلة واحدة فقط لمن شأنه أن يهين الكرامة الوطنية وأن يحول دون رفاه الولايات الأخرى ، ويؤذى الصناعة الإيطالية بل أنه من شأنه أن يذهب بمزايا الأمة كلها ، من أجل ذلك يجب المطالبة بالإستقلال قبل الوحدة وقبل الحرية الدستورية ، ومن غريب ما ذكره فى كتابه أن إيطالية لا تحصل على استقلالها إلا على الاختلاف الذى يحدث بين الدولة العثمانية وبين النمسة فيؤدى إلى

الحرب التي تشغل النمسة بالشرق وبذا تسنح لإيطالية فرصة الحصول على استقلالها وتتجلى قوة أملها في الجملة الآتية ، لا تقهر أمة تبلغ عشرين مليوناً إذا اتحدت وكانت ذات خلق ، وينهى كتابه مثل جيورتي بالجملة الآتية : « فليقم كل شخص بواجبه حسب استطاعته والله كفيل بالإتمام !! » .

وقام (مسيّمو دازجليو) صديق بالبو بنشر أرائه ، وكان هذا أيضاً من أشراف بيمونته ، ترك مسلك الجندية واحترف الرسم وكان يقضى أوقاته بين روما وميلانو وفرنسة ، ولعله البيمونتي الأول الذي برهن على إيطاليته بالتجول في مراكز إيطالية المهمة وأخذ يكتب الروايات ونال شهرة في إيطالية كلها ومع أن بالبو كان يميل إلى آراء جيورتي من جهة اعتبار روما فإن دازجليو كان يكره روما ، وفي خريف سنة ١٨٤٥ دعاه أهل الرومانى لبشر رسالة بيمونته فوصل إليها ، وأخذ يبشر بالثورة في اليوم العظيم ويدعوا إلى الثقة بشارل البرت ، ورغم الذكريات المرة التي تحز في نفوس الأحرار الفتيان من جراء موقف ملك بيمونته ورغم اقتناعهم بضرورة توجيه جهودهم نحو الجمهورية فقد استطاع دازجليو أن يجذب فئة كبيرة إلى آرائه ومع ذلك فإنه لم يوفق إلى القضاء على عادة العصيان المحلي .

فلم يكد يترك الرومانى حتى بدأ الارهاب فتلاه قيام فرا تورى الذى دفع الأحرار إلى رفع السلاح فى رافينه وريمى حيث نشرت

بيانات عامة إلى الملوك وشعوب أوروبا ، وكانت الحركة في حد ذاتها قليلة الأهمية وكانت الظاهرة الأولى للفكرة الجديدة التي برزت باشتراك رجال من شيع مختلفة من أجل غاية واحدة وقادها رجلان لا ينتميان لحزب الثورة وهما (ممياني وفاريني) كتب البيان بقلم مازيني وكانت الحركة ترمي إلى إكراه البابوية على إنقاذ نفسها بالقيام بالإصلاحات ولم تتعد المطالب التي وردت في البيان ما جاء في المذكرة الدولية الموضوعة سنة ١٨٣١ ، وكان في جواب البلاط البابوي عليه بعض اللباقة والحدق ، أما داز جليو فانهز الفرصة وأذاع بياناً يؤيد فيه سياسة ييمونته التقدمية ، ثم طبع رسالة تبحث في حوادث الروماني الأخيرة ، ندد فيها بالثورات المحلية الصغيرة التي لا تؤدي إلى الاستقلال بل تمكن الحكومات من سحقها وتسوغ حجتها في إنزال الاضطهاد بالأحرار ، مبيناً أنه ليس من حق أقلية أن تفرض مستقبل الشعب وأن تلقى البلاد في كفاح واسع ، خطر ، فالمعركة يجب أن يشترك فيها الجميع ولكن الوقت لم يكن صالحاً للحرب ما دام النمسيون يستطيعون أن يقيموا كل حركة بقوة السلاح ، ومع أن الصبر يشق على الرازحين تحت الاستبداد فإنه يجب ألا يغرب عن البال بأن الثورة تصطدم بسخط الرأي العام ومن مزاياداز جليو تقديره للرأي العام .

وكان لتلك الرسالة صدى عميق في البلاد وأصبح داز جليو بفضلها زعيماً لانصار البرت الذين يطلقون آمالهم على ملك ييمونته

أما الجمهوريون فاعترفوا بصعوبة السير ضد التيار وهكذا أخذ الشبان الجمهوريون يبدلون معسكرهم وينضمون إلى الحزب الجديد ، وقوى هذا التيار حتى صعب معاكسته ، فرأى مازينى رغم اقتناعه بالمذهب الجمهورى ضرورة التفاهم ورضى بأن يكف عن الدعاية الجمهورية ولو إلى حين على أن يرضى المعتدلون أيضاً بالكف عن فكرة الاتحاد وبالسمى للوحدة - وكان من نتيجة ذلك أن أخذ الذين يتلهفون من صميم قلوبهم إلى رؤية إيطالية حرة ينضمون إلى صفوف المعتدلين أو الالبرتين - ويزيدون في عددهم ومع ذلك فإنه لم يكن بينهم وقتئذ تماسك فى الرأى ، فمنهم من يريد أن يشترك البابا فى الحركة ، وآخرون أمثال ، « جياكومو دوراندو ولويجى توريللى » ، يودون أن يتخلى البابا عن سلطته الزمنية ، ومنهم من ينشد الحرية الدستورية قبل الاستقلال ، ومنهم من كان يفار من التوسع البيموننتى ويعارض إلحاق أى جزء وراء وادى بو إلى بيمونته ونابولى وطوسكانه على أن يكون الملك شارل البرت الحاكم المعنوى لإيطالية .

ومع ذلك فإن شارل البرت لم يحقق آماله أنصاره إلا قليلا ، ففي السنوات الأولى من حكمه تبين أنه أضاع مثله الأول ، ذلك الثقل النبيل وأصبح فى بعض الأحيان تحت نفوذ الحزب الاكليريكى وكانت الشدة التى استعملها ضد الأشخاص قد وسعت الهوة بينه وبين الأحرار وكان يرفض بأن يتساهل معهم أبداً ، حتى أن

حكومته ساعدت النمسة على إجبار سويسرة على طرد اللاجئين من بلادها ، وكان محتملاً أن يكون شارل عند حسن الظن به لو لم يخش تقدم الجيش النمساوي نحو تورينو فكان مثله الأعلى في الحكم المطلق المنور ، وكان يرى بأن حكومة شخصية قوية ضرورية للاحتفاظ على القومية البيموننتية فكان على حد تعبيره بين « مدينة الكاربوناري وشكولاته اليسوعيين المسمومة » ، ويظهر أن الزمن والحوادث غيرت آراءه إذ رأينا في المدة الأخيرة يضع ثمنه في الأحرار حينما رأى أن اليسوعيين يعارضون إصلاحاته ، ولى رئاسة الوزراء « فيلا مارينا » وأخرج من الوزراء بالتدريج جميع العناصر الرجعية وشرعت حكومته تقوم بالإصلاحات الإدارية ، وكان شارل البرت يقول : « على الحكومة أن تضع نفسها على رأس كل حركة تقدمية » ووضعت اللجنة الحقوقية القانون المدني المسمى باسم البرت نفسه وأصبح هذا القانون أساساً للقانون المدني الإيطالي ، وقد ألغى العرف الإقطاعي في جزيرة ساردينه ، وكان مرعياً إلى ذلك الحين وله صفة اشتراعية ، وأعاد فيلا مارينا تنظيم الجيش وجعل الخدمة فيه قصيرة وخفف رسوم الحماية الجمركية وعاد الرخاء إلى مدينة جنوة حين أصبح بعضها ميناء حراً وعقدت مع الخارج عدة معاهدات تجارية ومنحت الحكومة إعانات لترقية صناعة الحرير وألغت النقابات وأصلحت دوائر البريد وأحدثت كراسي جديدة للتدريس في جامعة تورينو واجتمع المؤتمر العلمي الثاني في تورينو سنة ١٨٤٠ ورغم تدين

الملك فإنه أظهر حياده في حماية المذاهب فدافع عن امتيازات جماعة الجاليكان ضد هجمات روما ، ولما قاوم الاكليروس ، ففتح المدارس السلمانية وجميعات الاسعاف وقف منهم الملك موقف المناوئ ، وقد استخدم فضلة الواردات التي تراكمت بفضل السياسة المالية الرشيدة في مد السكك الحديدية في مملكته ، وكان يكره مترنيخ كل الكره ولم يغفر له محاولاته لإبعاده عن العرش ، وكلما ساءت نيته نحو النمسة تحتم أن يتقرب من شعبه ، ولم يرح أبدأ إلى بقاء الأشراف طبقة منعزلة فسعى في إزالة الحواجز بينهم وبين الطبقة المتوسطة ، ووافق سنة ١٨٤٢ على تأسيس جمعية زراعية قومية فكانت جلساتها فرصة لاشتراك البيموتية مع المباردين في المذاكرات الأمر الذي جعلهم يشعرون بأن عليهم واجباً يتعدى حدود البحث في الأمور الزراعية ، وسمح لكتاب جيورتي « بريمانو » بالتداول وكلف الشاعر « براتي » بكتابة نشيد للمسير يحتوي البيت الآتي : — كلنا جميعاً من بلاد واحدة — يجري في عروقنا دم واحد .

وتوترت العلاقات بين النمسة وبيموته في مطلع سنة ١٨٤٣ بسبب النقاش حول تجارة الملح بموجب أحكام معاهدة قديمة وكان الملح المستورد من لمبارديه لا يكفي لحاجة منطقة تسينا فلذلك طلبت هذه المنطقة إلى بيموته بأن تسد حاجتها الأمر الذي جعل النمسة تحتج على بيموته ، فما كان من هذه الأخيرة إلا أن قابلت عمل

النمسة بالمثل وبذلك فشلت مساعي النمسة في تقييد تجارة ييمونته ،
وقد كان لفشل النمسة هذا استحسان عظيم لدى الرأى العام ،
ولما اشتد التوتر ولاح شبح الحرب تراجع الملك وارتأى أحد
الوزراء حل الخلاف بالطرق السلمية على أن يكون قيصر روسية
الحكم في حسم الخلاف ومما يجدر ذكره أن الملك أصلح التعليم
الأولى وشجع وزير المعارف على القضاء على الثقافة الأكليريكية
في تورينو رويداً رويداً وكان يتصل بالأحرار المعتدلين الذين يرغبون
في الحرية الاجتماعية ويشاركونه في مناوأة الحركة الديمقراطية
ولا يهتمون إلا قليلاً بالحقوق الدستورية .

الفصل العاشر

بيوس التاسع

أيار سنة ١٨٤٦ : كانون الأول سنة ١٨٤٧

مات البابا جرجوار في صيف سنة ١٨٤٦ ، وانتخب محله بيوس التاسع ، الذي كان يظهر عطفه على الأحرار مع أنه كان حامياً لليسوعيين ، وكان مطلعاً على كتب المعتدلين ، مبدئياً كرهه للاضطهاد السياسي ولعله كان يتوفق في مهمته رئيساً للممتلكات الكنيسية لو آتى في زمن أكثر هدوءاً من زمنه وكان مثقفاً ، حر الفكر ، متحلياً بعقل نافذ إلا أنه كان ضعيف الإرادة متردد الرأي يخشى المسؤولية ، تلك كانت صفات الرجل الذي سوف يتوقف عليه مصير البابوية ، وكان قد ورث حقد روما التقليدي على النمسة ، فأول ما فكر فيه إزالة جميع مساوئ الحكم السابق ، فجعل التجارة حرة ، ووعد بمساعدة المؤتمرات العلمية وعين لجنة للسكك الحديدية ، وعنى عن جميع الموقوفين السياسيين فكان لكل ذلك وقع حسن في أنحاء إيطالية ، وأثار الحماسة في نفوس الأحرار الذين تشبعوا بأحلام جيورتي واعتبروه المصلح المنتظر حتى أن الموسيقار روسيني وضع أغنية خاصة به ولما عاد

المنفيون جماعات وحضروا القداس اعتبر الناس هذا رمزاً لعهد جديد تتصافح فيه أيدي الحرية والتجديد الاجتماعي وأيدي الدين والإصلاح .

سارعت مدينة بولونية إلى تقديم رمز مصالحتها مع روما ، وزالت الرقابة التجارية وتم الصلح بين الشعب والشرطة ، وانقلبت النقابات في الروماني إلى جمعيات وتبرعت بمبالغ كبيرة لتأسيس المدارس ، وقد رأى الملك شارل البرت في شخص البابا الجديد الرجل المصلح الذي يشجع الآمال إلى أقصى حد ، فارتاح ضميره وهو الرجل المتدين لأنه سوف يسير في الطريق الذي يسلكه رئيس الكنيسة ؛ ولما هددت النمسه باحتلال الروماني رأى شارل البرت أن من واجبه الديني والقوي أن ينتصر لبيوس التاسع ويحميه من عدوان النمسيين فصرح بما يلي « إذا حاولت النمسه أو مملكة نابولي التوغل في دويلات الكنيسة فسأهتف بصرخة الاستقلال والدين » . وقد ألهم هذا التصريح نفوس كثير من الأغنياء والطبقة المتوسطة في بيمونته ووعدوه بالمساعدة .

ولما اجتمع المؤتمر العلمي في جنوه بعد هذا التصريح بمضمة أيام أخذ الأعضاء يتذاكرون كأنهم في قاعة البرلمان ، ويتداولون في استقلال إيطاليا وحريتها وبعثها حتى أنه سار شوطاً بعيداً في مذكراته ، وقرر أن يحتفل أهل جنوه بعيد رأس تحرير المدينة

من النمساويين فتوجهت الأنظار إلى المستقبل القريب الذى تطرد فيه ميلانو وفنيسيه الأجنبى منهما ، وكان من أمر ذلك أن امتدت شعلة الحماسة على طول جبال الأبين فى طوسكانه والرومانى واشتد الكره ضد النمسه . وكان اليسوعيون الرجعيون واقفين لهذه التبدلات بالمرصاد ولم يكن اليسوعيون يؤلفون حزباً قوياً خطراً فى ييموته وطوسكانه وروما وإنما كانوا يشغلون مناصب الإدارة ويقودون قسماً كبير من الأشراف والاكليروس وهم أقوياء بتنظيمهم الدولى ولهم فى كل حكومة إيطالية نفوذ ظاهر أو خفى . أما فى نابولى ومودينه فظلت فكرة الإصلاحات خامدة .

وبدهى أن بصطدم بيوس فى روما باليسوعيين والقسم الأعظم من الكرادلة وجماعة الاكليروس ، وبما أنه رغب فى ألا يتحرش بأى حزب فقد احترم جماعات سنتوريون الجياع ، واحتفظ بأكثر موظفى جراجوار الرجعيين ، وكان هذا خطأ فاحشاً ، عبثاً حاول وزير فرنسه المفوض أن يقنعه بأن تطهير الإدارة يجب أن يسبق كل إصلاح ، فلذلك أخذت بعض أوامر الكيرنيال تهمل ولا يعمل بها ، وبدأت أعضاء السانقيديست تتحدث عن احتمال نشوب الحرب الأهلية ، وأخذت صحافتهم تهاجم البابا . وفى شهر آب عين البابا الكردنيال (جيزى) مستشاراً للدولة ، وكان هذا يعد رئيساً لجماعة الاكليروس (الحرة والمرشح الشعبى للبابوية إلا أن كبر سنه وجهله للأمور وتردده جعله غير كفء للعمل الذى

أنيط به . وإدارة يرأسها مستشار في التسعين ، وبابا متردد لا تشر غير القوضى ، وظلت جماعة السنتوريون على دأبها تقتال الناس في ظلمات الطرق مما جعل أحرار الروماني يطالبون بتأليف حرس مدني لحمايتهم ، وأخذت الدوريات تتجول في طرقات بولونية وفراره قبل وصول جواب الحكومة ، ثم جاء جوابها وإذا به بالرفض البات وبذلك أضاعت الحكومة هيبتها . ولو أنها اتفقت مع الأحرار والمعتدلين لتغلبت على الصعوبات بيد أن مثل هذا الاتفاق كان يتطلب تطهير الإدارة والموافقة على تأليف الحرس المدني ؛ وأخذ الرجميون يدبرون الدسائس للوقوف دون الإصلاحات بينما بقي المعتدلون بلا حركة ، مكتفين بنجاح برنامجهم الظاهر ، ومعتمدين على البابا ، ووجلين أمام مطالبات الأحرار الراديكاليين ؛ وكان منهجهم لا يطمح الرغبات فهو يتلخص بإعادة تنظيم الشرطة وفتح مصرف في بولونية وإصلاح الجامعات وتأسيس مجلس الدولة . ولما استرسلت الحكومة في خمودها وظل المعتدلون يتلاعبون بكتابة البرامج فقد اشتد قلق أكثر الأحرار نشاطاً ولا سيما حين رأوا آمالهم تتحطم نهائياً وإلى الأبد .

وحينئذ برز مازيني للميدان إذ رأى أن أحسن سياسة يتخذها بانضمامه إلى الحركة الجديدة وسوقها نحو الهدف الذي ينشده ، وكان على استمداد لأن يضحي بميوله الجمهورية إذا

اقتضت الظروف ، وأن يرضى برئيس كالبايا أو ملك يعمل للوحدة ؛ ومع أن أنصاره كانوا قليلي العدد فقد التحق به كثير من الأحرار أنصار بيوس ، يعقدون أملا على البابا ، ويرون أنه والأمرء سيرضون طوعاً أو كرهاً بالاندماج في الحركة الديمقراطية ويؤسسون حكومة دستورية ويعلمون الحرب على النمسه . أصبحت طوسكانة موطن استياء عام فجعل «سمبني» . رئيس وزرائها الشرطة في حالة الاستعداد للطوارئ تجاه الأعمال التي قام به سلفه . ولما وافق مجلس الوزراء الرجعي على قبول اليسوعيين اضطرب الرأي العام لذلك أيما اضطراب ، لأن الناس كانوا يحملون في قلوبهم حقداً دفيناً عليهم ، ولما فشل البلاط في إدخالهم في فلورنسه حاول إدخالهم في بيزا إلا أن مونتا نيلي أحد أساتذة الجامعة حرض التلاميذ ضدهم ففشلت بذلك المحاولة الأخيرة أيضا ؛ واتخذ هذا الأستاذ الصحافة السرية أداة سياسية قوية وأصبح ذا نفوذ لدى الأحرار ، وفي مثل هذا الوقت وردت أخبار اعتقال بيوس كرسي البابوية وعفوه عن المبعدين . وكانت طوسكانة دائماً في رغبة من روما إلا أن الدعاية القوية فعلت فعلها وأمالها إلى جانب البابا وقامت المظاهرات في أنحاء طوسكانة ، يضرع نازها الاستياء من سوء الحالة الاقتصادية والسياسية المستعجوز على النفوس . وانتهز بعض الرجعيين الفرصة واتخذوا هذا الهياج ذريعة لتسوية الاحتلال النمساوي إلا أن لثوبولد كان حريصاً على استقلاله ، يقاوم

كل تدخل وأخذ الأشراف الأحرار في فلورنسه والراديكاليون يلحون على الحكومة بأن تصلح جهازها الإدارى . فهناك حزب أولاد جورج التيقظ بزعامة (كابونى) يقف بالمرصاد من جهة وجماعة أخرى صغيرة غير ديمقراطية ولكنها تطالب بالحرية الاجتماعية التامة وبحكومة دستورية من جهة أخرى وكان يرأسها (ريكاسولى) ، فاتفق الحزبان على المطالبة بتخفيف وطأة مراقبة المطبوعات وكان الرئيسان يرغبان فى أن يقيم الصحافة العلنية مقام الصحافة السرية وأخذ كابونى يسوق الوزراء رويدا رويدا نحو سياسة أكثر حرية وتساهلاً ثم أبطل الصحافة السرية ، ونشرت الحكومة أخيراً قانون المطبوعات الجديد وبعد صدوره بيضعة أسابيع وعدت بتأسيس مجلس الدولة .

أما فى مملكتات البابا فقد عيل صبر رعية البابا وخابت الآمال حين رفضت الحكومة إيجاد الحرس الأهلى وحين رأى الناس التللكو فى تنفيذ الإصلاحات وإنشاء السكك الحديدية ، فأخذ أهل الرومانى من جديد يسمعون النعمة القديمة وهى نعمة التهديد بالانفصال . أما أهل روما فكانوا يلقون تبعه هذا البطء على عاتق الكرادلة واليسوعيين حتى أنهم أخذوا يهتفون « ليعش بيوس وحده » ولما زار البابا كلية اليسوعيين راح الأهالى يصيحون « أيها الأب المقدس لا تنق شكولاتهم » يرمزون بذلك إلى أن اليسوعيين

يتآمرون على حياة البابا . وقد اتفق زعماء روما على شل أعمال الحكومة واعتمدوا على برونييتي (الملقب (شيشراكيو) لقيادة العامة ، وكان هذا الرجل قوى العزيمة ، خالص النية وضع نفسه موضع الصديق الخاص للبابا .

وكان البابا قد ضاق ذرعا بمعارضة البلاط له ولكنه لا يتحلى بالجرأة الكافية لسحق هذه المعارضة ، ولكن حركة شيشراكيو بث فيه بعض الشجاعة فأصدر أمره بعد التي واللتيا وبعد وعود ومماطلات قانون المطبوعات وفيه يلغى الرقابة وذلك في شهر آذار سنة ١٨٣٧ ؛ وفي شهر نيسان وعد البابا بتأسيس مجلس الدولة ، يعين من قبل مجالس الولايات ، ويأخذ على عاتقه كثيراً من شؤون التشريع والمالية . وفي حزيران عين وزارة جديدة ومع أن أعضائها كانوا من رجال الدين فقد اعتبرها الناس خطوة للأمام . غير أن الوزارة أضاعت الفرصة وقضت على كل أمل بإمكان استعادة الثقة . ذلك لأنها خلطت الإصلاحات بأعمال الاضطهاد ، وقد احتج (جيزي) رئيس الوزراء رسمياً على الشعور العدائى الذى بدأ نحو التمسويين إذ أن ذلك ما ينافى كون البابا أباً لجميع المسيحيين فى أى بقعة من بقاع العالم . وقد هوجم (فنتورا) لأنه فى تأييده للزعيم الإيرلندى (أوكونل) — وقد مات فى جنوه فى طريقه إلى روما — ندد بسياسة الخضوع التام وطلب إلى

الناس أن يجعلوا من كفاح هذا الزعيم قدوة لهم ، وأمر الراهب (جافيزى) رسمياً بأن لا يذكر اسم إيطالية فى مواعظه الحماسية .
و حين تحرك المعتدلون بزعامة دآزجليو وبذلو قليلا من الجهد صدر القرار بتأليف الحرس المدنى ، ولعل الوزارة بموافقته هذه كانت تتوقع أن الطبقة المتوسطة إذا تسلحت تكون درعاً يقيها حملة الأهلين من جهة والد سائس النمسية أو السانفديستية من جهة أخرى . ولما أخذ رجال السانفديست يهاجمون الأحرار فى بعض المناطق ويدبرون الدسائس نشط البابا فى تأليف الحرس المدنى ، وأصدر أمراً بتسريح السنتوريون ، وأوقف رجال السانفديست المشبوهين فاضطر الكرادلة والرهبان إلى قبول الأمر الواقع وأخذ الأهليون يهرعون إلى التطوع فى صفوف الحرس المدنى . وحينما استقال (جيزى) عين البابا ابن عمه (فترينى) بدله وكان فترينى هذا جاسوساً للنمسه يعمل لحسابها ، وأصبح مترنيخ ينظر إلى هذه الأمور بعين القلق واعتبر وجود بابا يميل إلى الأحرار من أعظم مصائب ذلك الدور ، ولكن نفوذ النمسه عجز عن الوقوف فى وجه الحركة الايطالية . وقد حاول مترنيخ عبثاً أن يثير فى البابا وفى دوق طوسكانه الكبير المخاوف من الحركة القومية ومن أنها تنتهى بالجمهورية ، وقد سمى كثيراً لاستجلاب شارل البرت إلى جانبه بتحريك أطماعه ، إلا أنه لم يوفق إلى ذلك فكلف حينئذ عملاءه بمهاجمة الملك وحينما اطلع على الحماسة التى أثارته فى طوسكانه

موافقة البابا على تأليف الحرس المدني أرسل مذكرة إلى فلورنسه مهدداً الحكومة فيها بالاحتلال فيما إذا هي قررت بدورها تأليف الحرس فيها وأرسل صورة من هذه المذكرة إلى بلاط تورينو .

ولولا تهديد فرنسه إياه لكان قد احتل الروماني وقد اضطره إلى التريث تهديد انكلترا بإرسال أسطولها إلى تريسته وتهديد (جيزو) رئيس وزراء فرنسه بإزالة القوات الافرنسية في دويلات الكنيسة ، ولكنه عاد فترك جانب الاحتياط وأراد القيام بحركة عسكرية نحو نهر بوتكون بمثابة تهديد لروما ، إلا أن زملاءه في الوزارة لم يوافقوه على هذا الرأي فاكتمت بمظاهرة أخرى أقل أهمية من هذه ؛ ففي اليوم الذي قامت فيه جماعة السانفديست بإيعاز النمسه بمظاهرة ، قوى النمسيون حاميتهم في قلعة (فراره) بقوة عظيمة ، ولما رفضت روما دخولهم أرض الروماني رفضاً باتاً أخذت دورياتهم تتجول في طرقات المدينة ، الأمر الذي اعتبره الإيطاليون إهانة من قبل النمسه للبابا ودليلاً على عزم النمسه على مناوأة الآمال القومية ؛ فالمعتدلون أمثال دازجيلو وبالبو طالبوا باتخاذ تدابير حازمة ، وأسرع الوطنيون أمثال (دي مونتفيدئو) وغاريبالدي الذي شاعت بطولته في العالم الجديد إلى تقديم خدماتهم للدفاع عن البابا وأدى السخط العام والخوف من الاحتلال إلى انجراف الأمراء أيضاً إلى التيار .

أما في ييمونته فقد حام الملك حول حزب الأحرار وأخذ ينشط السياسة الاقتصادية ، ولما اطلع على دسائس النمسه اغتاز منها وغضب على مذكرتها بشأن الحرس المدني ، وأخذ يقترب من الوطنيين فوافق على دخول كتبهم وجرائدهم إلى مملكته ، وساعد أهل تورينو على الاكتتاب في سيف الشرف الذي أريد تقديمه إلى غاريبالدى أثناء عودته واجتمع هو بالمتأمرين الميلانيين . ولما ورد خبر احتلال فراره اضطر الوزير (ديلا مارجرىتا) نفسه إلى أن ينحى أمام العاصفة وأصبح في غير مقدور الملك أن يصم أذنيه عن سماع نداء الأمة « التي رأت فيه سيفها المسلول » . ولما ورد كتاب البابا أجابه بأنه في جميع الأمور لا يفرق بين قضيته وقضية بيوس . ولما اجتمعت الجمعية الزراعية في (كساله) في رأس سنة العفو الذي كان أصدره البابا عن المبعدين أرسل الملك إليها كتاباً مفتوحاً قال فيه : « إذا شاء البارى تعالى أن تنشب الحرب في سبيل حرية إيطالية فسأضع نفسى على رأس جيشى لتحريرها » فأجابه الأعضاء من أهل ييمونته وجنوه ولبارديه وبارمه بولاء وحماسة واعدن إياه بالمعونة وطالبين منه تأليف حرس مدنى ؛ وبلغت الحماسة في ييمونته أشدها فاشتركت جميع الطبقات بالتبرعات للقضية القومية .

وفي طوسكانه ولوكا تطور الهياج إلى مطالبة مسلحة بتأليف الحرس المدني ، فالثورات التى حدثت بعد ثورة الايرلنديين

سنة ١٧٧٩ أيدت بأن الثورة التي توفى إلى وضع السلاح بيد الشعب تضمن الفخر بغاياتها بالحصول على المؤسسات التمثيلية . وقد علم الطالبان وحقاً ما علموا بأن تسليح الحرس المدني يجعل الاستبداد عاجزاً لا حول له ، على أن مطالبة الشعب بالحرس الأهلي لم يرد بها الدفاع ضد الاستبداد أو ضد الاشتراكية ، بل الدفاع عن الوطن . فإن فكرة وجود شعب مسلح يطرد النمساويين أمامه قد تأصل في النفوس ، وبينما طالبت فلورنسه بالحرس المدني بمظاهرة صغيرة ولكنها عنيفة تلقت لوكا الأمور بحذر أكثر من ذلك ، وكانت تتفقد حوادث طوسكانه بانتباه عظيم وبينما كان أميرها منغمساً في لذاته وشهواته وحين اعتقال بعض الأحرار المحبوسين اشتد سخط الشعب اشتداداً خشي الأمير عاقبة الأمر فوافق على تأليف حرس مدني في شهر ايلول ، وفي أوائل تشرين الأول رفض نصيحة دوق مودينه باستدعاء النمساويين وباع حقوقه إلى أمير طوسكانه وخلع نفسه فاضطر أمير طوسكانه الدوق الكبير أيضاً إلى الموافقة على تأليف الحرس في دولته . واشتدت حماسة الشعب ولا سيما بين الشباب والشيوخ والرهبان والجنود والأشراف ورجال الدين ، ونشرت في لوكا الرايات المثلثة الألوان وأخذت كل مدينة تحتفل بعيد الاتحاد ، وسارت القرى في الاحتفال على غرار المدن ، فأوفدت وفودها من الرجال والنساء والأولاد إلى المدن حاملين أعلامهم وعلى رأسهم راهب القرية يحملون الطرقات صابّين

اللعنات على المستولى على فرارة ، وزحفت الجماهير في حشد عظيم إلى قصر الأمير صارخة : « فليسقط النمسيون » طالبين الاتفاق وروما فاقتنع الأمير حينئذ بلزوم استمالة الأحرار المعتدلين إلى جانبه فأقصى الوزراء غير المرغوب فيهم من الوزارة وعين بدلهم (ريد ولني وسربستورى) . وهكذا ساعد احتلال فراره كثيراً على إشعال نار الحاسدة في الدول الثلاث المترتبة . وبينما كان أنصار الحكم القديم لا يزالون يشغلون المناصب وقيمون العقبات بوجه القوانين الجديدة كانت طلبات الشعب تشتد شيئاً فشيئاً ، وأخذت الصحافة تلعب دوراً عظيماً بحموية ونشاط أكثر من قبل ، وكانت الثورة في ليفورنة ومظاهرات شيشرو كيو قد لفتت الأنظار حتى خشى العقلاء أن تنقلب الحركة الإصلاحية إلى ثورة دامية ولا سيما بعد أن اندلعت نيران الحرب الأهلية في كابريه .

وكانت الظواهر تدل على أن إيطالية قد اتحدت ضد النمسة وكل شيء يدل على أن الحرب لا مناص منها ، فبدأ الهياج في ميلانو وفي فينيسيه ، وكان من نتيجة هذا الكفاح العظيم أن اندفع الأحرار في السعى إلى جمع الدول الثلاث في شبه اتحاد ، وتطور الاهتمام بالتجارة الحرة إلى التفكير في الاتحاد التجارى أسوة بالاتحاد الجمركى الألماني ، وكان هذا الرأي بمثابة تنبيه إلى مترنيخ بأن مثل هذا الاتحاد سيحمل الحكومات الثلاث إلى انتهاج

سياسة قومية موحدة . وحيث إن البابايوس كان لا يزال يتألم من الاحتلال (فراره) ، فإنه رسم خطة لضمان مساعدة الجيش البيمونتي فيما إذا هدد النمسيون باحتلال الرومانى فأوفد (كربولى بوس) إلى تورينو ، فاستقبل فيها بحفاوة وصرح الدوق الكبير بأنه لن يبقى مدة طويلة من دون أن يتفق مع روما وييمونته للدفاع عن القومية الإيطالية ، ولقى مندوب البابا معونة من اللورد منتو الذى أوفده بالمرستون ، وكان هذا يتحمس للحركة الحرة ، لمراقبة الأمور عن كثب ، ومع أن منتو جهر بأن انجلترا لا توافق على أية تعديلات أرضية إلا أنه شجع الحكومات على السير فى سياسة الإصلاحات والاستقلال . وقد رأى أن الملك شارل البرت قد انتابه التردد مرة أخرى وأن حكومته غير متأهبة للحرب وهو لا يزال فى قبضة اليسوعيين الذين أدخلوا فى روعه بأن الهياج والشغب السائدين فى طوسكانة لا بد من سريانهما إلى مملكته فساعد الملك الشرطة على مهاجمة الذين اجتمعوا لإنشاد نشيد روسيني الذى وضعه من أجل البابايوس فكان لهذا العمل وقع سيى ، فى نفوس الناس ، فقدم فيلامارينا استقالته واضطرد بلامارجيتا إلى تقديم استقالته بعده . وأظهر الملك التردد نفسه فى موضوع الاتحاد التجارى وكان يرغب فى أن يكون الاتحاد مطمئناً لرغبات ييمونته السياسى ، فذلك اشترط بعض الشروط التى جعلت طوسكانة وروما

ترفضان الاشتراك في الاتحاد ، وسمى اللورد منتو عبثاً لإقناع الملك بعقد معاهدة دفاعية بين الحكومات الثلاث ، وبينما كانت المساعي تدعو إلى التفاؤل اذا بالملك يغير رأيه بعد أن عثر على أغنية شعبية بعنوان الملك الثرثار ففضب وعاد إلى موقفه السابق .

وأراد أخيراً أن يهدىء شعبه ببعض الإصلاحات فقام بالإصلاحات التي تتناول الحكومة المحلية والشرطة والصحة ومراقبة المطبوعات وإحداث دائرة للمعارف ومنح الحرية المدنية للبروتستان وفي زيارته السنوية إلى جنوه طلب أهلها منه العفو عن أنصار مازيني وطرديسوعيين وساروا في مظاهرة يهتفون فيها « اجتازوا نهر تسينا فسنكون معكم » ، وبينما كانوا يهتفون له توهم بأنه سمع بعض المتهافتات لمازيني فما كان منه إلا أن أمر منع الاجتماعات في المدينة . الأمر الذي ألقى الماء البارد على حماسة الأهلين . ولما عاد إلى تورينو لم يرق له الظهور أمام شعبه بل ذهب إلى قصره خلصة . ومع ذلك كله فقد ظل على عزيمته بمقاتلة النمسة اذا أرادت أن تتقدم وزاد في الطين بله أن ماتت حينذاك أرملة نابليون دوقة بارمه ، وبموجب معاهدة فلورنسه يجب أن تنظم الدوقة إلى دوقية لوكا مع أن هذه الدوقية كانت قد التحقت قبل هذا بطوسكانة وكان أهل الدوقية يرغبون في الانضمام إلى طوسكانة ولوكا بدلاً من أن تقسم ويعطى قسم منها إلى مودينه والآخر إلى طوسكانة لأنهم كانوا ينفرون من حكومة مودينة المستبدة ، وكانت حكومة

طوسكانة قد تربت وتربست حتى احتلت قوات الدوق فرنسوا
أمير مودينه فيفزانو في أوائل تشرين الثاني ، فشبت معركة عنيفة
في طرقاتها وكادت تؤدي إلى دخول طوسكانة الحرب إلا أن الحكمة
تغلبت وعلى الرغم من تهديد دوق مودينة بالانضمام إلى الاتفاق
التجاري وبعد مؤتمرات طويلة عريضة وتضايق بالمرستون الشديد
أذعن مترنيخ وأمر بسحب قواته من فراره .

الفصل الحادى عشر

القوانين الأساسية

١٨٤٧ - ١٨٤٨

كانت أوائل سنة ١٩٤٨ تتمخض عن تغيرات فى جميع أوروبا فالاضطرابات التى وقعت فى هنغارىة وبوهيمىة فى سبيل الحصول على الحكم الذاتى ، والنزاع بين الهنغارىين والخرواىين كان يندرج بأفلال الأمبراطورىة النمىوىة . أما انعقاد الديت البرومى ونقاشه الحكومة نقاشا عنيفا ثم حله أمور ساقى جميع ألمانياة إلى حركة دستورىة عظيمة الشأن . وأضعفت الحوادث فى فرنسه شأن لويس فىليب ورئىس حكومته (جىزو) وشجعت الأحرار الاشتراكىين على العمل والاندفاع . وظاهرت انجلترة نجاح الاتحاد التجارى ضد تشريع الجبوب الذى عده الأحرار فى أنحاء أوروبا مثالا حسنا . وفى إيطالىا عقدت النمىة معاهدات مع دوقىات وادى بو من شأنه أن يجعلها دولة تابعة لها بكل معنى الكلمة ، وكانت بىمونته وطوسكانة وروما من ناحىة أخرى قد سلكت سىاسة حذر تجاه النمىة . وساد الاعتقاد بالأافائدة من الإصلاحات مالم يخرج النمىوىون من لباردىة وفنىسىة ، وكان فى نابولى نفسها

قد انضم أحرارها إلى صفوف أحرار إيطالية ، وكونت الحوادث اعتقاداً في البلاد بأن النمسة سوف تقهر وأن النمسيين سوف تقهر يطردون إما بمساعدة دولة أجنبية وإما بانتصار جيوش الأحرار في إيطالية أو بثورة عامة .

ولم تعتمد إيطالية على المساعدة الأجنبية في ذلك الوقت إلا قليلاً ، وقد أخبر لويس فيليب شارل البرت بإشارة مترنيخ بأنه يجب ألا يعتمد على مساعدة فرنسة ، وكانت إنجلترا تعطف كثيراً على إيطالية إلا أن رئيس حكومتها بالمرستون كان يلوح لها بوعود غامضة ينبغي من ورأها أن تمتنع بيمونتيه عن الحرب . وقد اتفق حزب إيطالية الفتاة مع رجال الحكومة في بيمونتيه على أمر واحد وهو الكف عن طلب المعونة من الخارج ، وعبر شارل البرت عن شعور الأمة بقوله : « إيطالية تكون نفسها » . وظن الطليان أن الأمراء والملوك في إيطالية ما عدا أمير مودينه وبارمه سيضمون جيوشهم إلى جيش بيمونتيه في الحرب ولكن هذا الظن تفاؤل لا يسوغه الواقع .

وصرح البابا في الوقت نفسه بأنه لا يرغب في الحرب مهما كانت الظروف ؛ أما فرديناند ملك نابولي فكان كثير الحسد ليمونته ومحبذا للاستبداد النمسوى مما يحمل على القول بأنه لن يشترك بالحرب برضائه ، وكان أمير طوسكانة وحده مستعداً للوقوف بجانب ملك بيمونته .

وانجملت الأنظار في لمبارديه لأنها ستصبح ميدانا للقتال ، وكان اللمبارديون أنفسهم في حالة شبه ثورة يترقبون نشوب المعركة بفارغ الصبر . فالطبقة المثقفة تخلصت منذ مدة شيئا فشيئا من العوامل التي كانت تبعدها عن السياسة ، فأسس بعض الأشراف الأحداث مجلة اسمها (مجلة أوروبا) اجترأت أن تبحث عن أخوة البطلان وتفاهة الاضطهاد للقضاء على فكرة الحرية . وهناك زمرة أخرى أكثر شعبية وأقوى عنزيمة التفت حول (كرينتي ودي كتانيو) محرر بوليتيكو : وكان كرينتي قد انتقد معاملة الحكومة للولايات الإيطالية وأثبت فداحة الحصة التي يشترك بها مواطنوه في ضرائب الدولة . وهناك جماعة من الحقوقيين والدكاترة الشبان قبلت برنامج مازيني القومي ، وهكذا وجد أناس يحملون المشاعل في الدجى الحالك يسيرون أذهان مواطنيهم بنشراتهم وبمؤلفاتهم الحرة وبكتاباتهم على الجدران وبدعائهم الصامتة في صفوف العمال والقرويين .

وكان لبيمونتته تأثير عظيم في تدعيم الوطنية اللمباردية ، وكان القسم الأعظم من إشراف ميلانو يملكون أملاكاً في بيمونتته فكانوا يقضون أوقاتهم بين ميلانو وتورينو ، ولما نشبت معركة التفرقة الحركية سنة ١٨٤٦ فاتح الأشراف ملك بيمونتته بأمور استرعت اهتمامه . وكان توريلي قد بحث عن مملكة إيطالية الشمالية وحاول جذب الملك إلى هذه الغنيمة الشهية . وفي صيف سنة ١٨٤٧

هزت الحوادث التي وقعت في دويلات البابا لمبارديه وفنيسيه هزاً عنيفاً . وكان لموقف البابا بيوس في حادثة احتلال فرارة والهتاف بالاستقلال صدى في الإيالات النمسية المضطهدة . وأخيراً بدأ القرويون يتململون في الأرياف ، واتفق الأشراف الراديكاليون في المدن ، وجهر الرهبان بخلافهم لوجهات نظر الحكومة ، وقامت المجالس البلدية تحاسب الموظفين ، وازدري القرويون في الجبال بقانون الغابات ، واضطربت الأسرات الشريفة والغنية ضد النمسيين ، حتى أن أحد الأمراء النمسيين لم يستطع أن يراقص سيدة طليانية في حفلة الرقص ، ولما مات رئيس أساقفة ميلانو اضطرت الحكومة إلى انتخاب إيطالي خلفاً له علماً تجلب رضاء الشعب ، وقد أدى هذا الانتخاب إلى مظاهرات صاخبة . أظهر الشعب تعلقه بالمطران الإيطالي فقاومت الشرطة بسلاحها الجمهور المسالم الجذل . وأخذت الدوريات تتجول في الطرقات ، تعتدى على الأهليين وتريد من سخطهم ؛ فألّهب هذا الحادث قلوب العامة في المدينة وأدى إلى انضمامها إلى الجماعات الصاخبة حتى أن القضاة أنفسهم لم يروا بداً من إخلاء سبيل الموقوفين في هذا الحادث .

ولما تأكدت الحكومة النمسية من أنها أمام حركة خطيرة أراد مترنيخ أن يلهى أفكار أهل ميلانو بالسباح لهم بيان ما يريدونه وكان (المجمع — Cougragtion) هو المؤسسة الوحيدة في لمبارديه التي تمثل الإيالات ، وهو بمثابة مجلس استشارى . فقدم

(نزارى) مندوب برعامة استدعاء إلى المجمع يطلب فيه تعيين لجنة تحقيق لمعرفة أسباب الاستياء وتقديم مذكرة إلى الإمبراطور . أما (توماسيو) مندوب فينيسيه فطالب بحرية الصحافة ، أما (مانين) فسبق اللومبارديين وطالب بالحكم الذاتى وذلك بالتمثيل القومى الحق وهكذا لم تتعد الحركة حدود القانون . وبقيت الحكومة مترددة بينما كانت الشرطة والجيش يغليان غضباً ويستعدان لصب الزيت فى النار . وكان قائد الجيش الجنرال (راديتسكى) نموذجاً للظالم المستبد فى الجيش النمساوى ، وكان يجهر بأن « سفك دماء ثلاثة أيام يوصلنا إلى سلم يمتد ثلاثين سنة » ؛ ولكن نائب الملك وحاكم ميلانو كانا يميلان إلى تدابير أكثر هودة من تدابيرهم ، وكان راديتسكى يدعو الله أن يهبأ له الميلانيون الفرصة بتصرفهم ليطلب المدد من المركز ويحكم بالقوة الساحقة . وأخيراً هبأ له الميلانيون تلك الفرصة ، ذلك أنهم فكروا فى الإضراب عن استعمال التبغ إضراراً بالخرينة النمساوية ، ولا سيما لأن التضحية به من جانب الطليان ممكنة . وأصبحت الشوارع فى ميلانو فى أوائل شباط خالية من المدخنين ، وعرف الجيش كيف يستغل هذا الإضراب فوزع مقادير كبيرة من السجائر على الحامية ، وأخذ الضباط والجنود ينفخون الدخان فى وجوه المارة ، وحين غضب الأهليون من هذا التحدى أمر راديتسكى خياله بمهاجمتهم وهم عزل ، وأعمل الجنود حرايبهم فى العمال الراجعين إلى بيوتهم فقتل عدة أشخاص

وجرح أكثر من خمسين شخصاً . ولم تقف ميلانو ساكتة إزاء هذه الإهانة ، فاحتج الأشراف والموظفون على هذا العمل الشائن ، ودعا المطران من الكتدرائية الباري تعالى أن يلهم الحكومة الرأفة بالبشر فأصدر الامبراطور بلاغا يتهدد فيه الناس بالمعقوبة الصارمة ، وقضى بهذا على كل أمل في إزالة الاختلاف بين الحكومة والأهلين وأصبح الشعب والجيش على طرفي تقيض .

وقد ولدت فتنة التبغ حقداً عاماً في كل أنحاء إيطاليا ، وكانت الحركة القومية والحركة الإصلاحية قد ارتبطتا برباط واحد ارتباطاً محكماً حتى أصبحت الواحدة تؤثر في الأخرى فتمتحمس الواحدة لنجاح الأخرى أو لفشلها ، إلى أن حصر الاصلاحيون مطالبهم بالتعديلات الإدارية ، وكان المعتدلون قد اتخذوا مبدأ العمل بمبدأ الأمراء شعاراً لهم . وحتى احتلال (فراره) كان الأمل ضعيفاً جداً في الحصول على القانون الأساسي من بيوس أو لثوبولد أو شارل البرت . وكان الأحرار قد وحدوا جهودهم في ثلاث مواد هي : حرية الصحافة وإيجاد الحرس المدني وإقامة مجلس للدولة ، وقد حصلوا عليها في طوسكانة ودويلات الكنيسة . وكانت الطواهر تدل على أن البلاد رضية بما تم . وأخذت الحرب ضد النمسه تشغل بال أنصار مازيني في ذلك الوقت أكثر مما تشغله فكرة الحكومة الشعبية .

ويتضح من ذلك أن جميع الأحزاب لم تفكر في الدستور ،
وأن الاشتراكية النظرية لم تكن قد انبثقت إلا قليلا بينما كان
الاستياء الاقتصادي عظيما . وحدث أن جاء الشتاء قاسياً جداً
فقضى على كثير من أشجار الزيتون ، وأدت حرية التجارة في
انجلترا وإيرلنده إلى جر الحبوب إلى أسواقهم فارتفعت بذلك
أسعار الحبوب في إيطاليا وبلغ الضيق في جنوه أشده . وكان
العمال يحملون حقداً دفيناً على أسيادهم وفي فلورنسة ثار الصناع
ضد أسلوب تأدية الأجر بالساعة وادى فقدان الخبز إلى كثرة الفتن
واشتدادها . أما في طوسكانة فالأزمة أصابت صغار المزارعين
والعمال ، فأخذ المحرضون من أى حزب كان يستغلونهم ، وفي الرومانى
نهب الناس المخازن على مرأى من الشرطة ، وكان الناس يعدون
هذه الفتن من عمل العملاء النمساويين أو رجال السانفيديست ،
واتخذت الأمور في ليفورنه شكلاً جدياً ، وكان أهلها الأشداء
قد تعلموا من (جرازانى) حب الديمقراطية فامتدت دعايات التحريض
والإثارة طول الحريف واستولى الشعب بعد يومين من فتنة التبغ
على المدينة ودعى جرازانى لقيادة الحركة فاستلم زمامها وأصبح
الدكتاتور ، بيد أن الحركة لم تلق إلا عطفاً قليلاً فى القسم الباقى
من طوسكانه . ولما رأى الناس ضعف الحكومة أخذوا يلحون
عليها بتأسيس حكومة دستورية وأصبح مؤكداً بأن الدستور
وحده هو الذى يقلل من عجز القوة الإجرائية .

وساد الاقتناع نفسه في ييمونته حيث كان المحافظون والإصلاحيون
المفرطون على طرفي نقيض ، وكانت الجمعية الزراعية في خلال
السنتين الأخيرتين قد انشقت على نفسها بالنزاع بين الأشراف
الأحرار بزعامة (كاميل كافور) والفرع الديمقراطي بزعامة
سكرتير الجمعية (فاليريو) وامتد هذا النزاع إلى الشعب أيضاً
فسمى دازجيلووفانتى مدبر مظاهرة ريميني إلى إزالة الاختلاف ،
وبدا للجميع أن الدستور وحده هو الذى يستطيع أن يطمئن
رغبات البلاد فرفع البابو بنفسه مذكرة إلى الملك يرجوه فيها أن
ينظر بعين الاعتبار إلى هذه الرغبة : إلا أن الاندفاع الحقيقى ظهر
من قبل رجل كان الديمقراطيون يعدونه من المعتدلين المكروهين
بل وأدعاهم إلى الريبة وهو كاميل كافور :

كان كافور ابن وزير من أشد وزراء الملك شارل البرت رجعية
وكان عمره حينئذ سبعا وثلاثين سنة ، وكان في شبابه من الراديكاليين
إلا أنه أخذ يميل إلى الاعتدال حتى أصبح من أنصار طريقة
العقار الإنجليزي والارتباط المتقابل بين الطبقات إلا أنه كان من
الوطنيين الذين يكرهون اضطهاد النمسة والبابا ويحرق على الاستبداد
الداخلى الذى عرقل التجارة وعد كل قريحة كفراً أو خيانة وطنية
وقد ساح كثيراً في إنجلترا وفي فرنسا ورجع إلى بلاده يحمل حقداً
على الأكليريكية وإيماناً قوياً بالتجارة الحرة وبالحرية الاقتصادية
وبالنشاط السياسى السليم . ورغم أنه كان ارستقراطياً بالولادة

وبالبيئة التي نشأ فيها وبكثير من العادات فقد أظهر باطواره
وبلباسه كرهه للمظاهر الأرستقراطية كزينة الرتب اعتقاداً منه
أن الأرستقراطية مائلة للزوال في المجتمع الحديث . وبالجملة فإنه كان
نبيلاً ، جسوراً مثقفاً طويل الأناة لا ينفعل بسرعة حتى قال عنه
(كوين) أنه أقدر رجل عرفه ، متحلياً بعقل سليم ومن البديهي
أن ينضم إلى الحركة القومية المعتدلة . وكان كافور لا يثق بالبابا
المصلح وسرعان ما آمن بعقيدة بالبو التي تقول بزعامة ييموته ،
ومع أنه خاصم الديمقراطيين في الجمعية الزراعية فإن أنظاره كانت
تمتد إلى أبعد من نطاق مدرسة المعتدلين الضيقة . فسمى جاهداً
إلى تأسيس حزب جديد ، يفتح أبوابه لكل من يحارب في سبيل
الاستقلال القومي تحت راية آل صافويه ، وكان يعلم بثاقب فكره
أن الدستور ضروري جداً لتأمين حكومة صالحة تفسح المجال
للطموح الظاهر كطموحه ، وسرعان ما حانت الفرصة المناسبة ،
عقب عودة الملك من جنوه أدى جزع الناس إلى هياج جديد
فاشتدت النقمة على اليسوعيين مما جعل المجلس البلدي يلتمس
من الحكومة الموافقة على تأسيس حرس مدني لصيانة الأمن ،
وقد عزز هذا الطلب بالتماس آخر موقع بتواقيع كثيرة ، واجتمع
محررو الصحف الكبيرة في تورينو بـ (كافور وفاليريو وجيا كومو
دوراندو وبروفيريو) للبحث في أفضل الطرق لتأييد هذا الطلب ،
واقترح كافور على المجتمعين المطالبة بالدستور ، ومع أن الأعضاء لم

يتفقوا على هذا الاقتراح ، إلا أن قرار الاجتماع أوضح القضية ،
وبدا أنه في أول فرصة مناسبة سمع صرخة مدوية في سبيل
الدستور .

ودلت الأحوال على أن أول مطالبة قوية مؤثرة قد حصلت
في الجنوب ، ف نابولي كانت من الوجهة النظرية تملك الشيء
الكثير مما تطالب به الدول الإيطالية الأخرى ، ومع ذلك فلم يكن
هناك أمل في أن تدخل النظريات في ساحة العمل ما لم يراقب
البرلمان السلطة الاجرائية . وكانت الأيام قد قوت شهوة الملك
للحكم المطلق وزادت في استبداده شكوكه حتى أن اعتبر المعتدلين
والديمقراطيين والأشراف والطبقة الوسطى والنابوليين والصقليين
خصومه على السواء . وقد نشر أحد الحقوقيين الشبان (ستمبريني)
في شهر تموز الماضي رسالة بعنوان احتجاج شعب الصقليين (نابولي
وصقلية) وصف فيها الاستبداد وصفاً دقيقاً قضى على الخرافة القائلة
بأن نابولي تتمتع بمؤسسات سياسية جيدة وختم رسالته بالعبارة
الآتية : « إن العلاج الوحيد هو السلاح » وبما أنه قد عبر برسالته
عن الشعور العام فإن دعوته إلى الثورة لقيت أذناً صاغية . وحيث
إن اللجنة الثورية في كلبريه قد حاولت عبثاً أن تجلب أحرار نابولي
وصقلية إلى جانبها في سبيل التحرر لذلك قررت أن تعمل وحدها .
وفي ١ — أيلول شقت رجيو ومسينه عصا الطاعة ، إلا أن
الحكومة سريماً ما قضت على الحركة وأعدمت حياة سبعة وأربعين

رجلا . وكان من تأثير هذا العمل الظالم أن اشتدت المطالبة
بالدستور ، وبينما كان الراديكاليون يترعون إلى القتال للحصول على
الدستور كان المعتدلون يأملون أن يوافق الملك على منح الدستور
خوفاً أو طموحاً ، وكانوا يرغبون في دستور يقضى بوجود مجلسين ،
وكان الملك قد تأثر من الاجتماع الذي تم بينه وبين من يمثلون
الأحرار ويتكلمون بلسانهم بعد أن لوح له هؤلاء بتاج إيطاليا .
وبينما كان أهل نابولي يترقبون مجرى الأمور في غير نشاط
قرر أهل صقلية الحركة فوحد (كريسي) أحد الحقوقيين الشبان
حركة التآمر في الجزيرة وفي الساحل ، وقد اضطرت لجنة نابولي
شاءت أم أبت إلى الموافقة على الثورة بالاشتراك مع الصقليين في
بداية السنة ، فتثور مدينة باليرمو أولاً مطالبة بدستور ١٨١٢
وبالحكم الذاتي ثم ثور نابولي بعدها لأخذ الدستور نفسه معدلاً
بعض التعديل . وبينما كان الناس في باليرمو ينتظرون بهدوء
شارة إعلان الثورة وإذ بالجمهور يتنكب السلاح ويهاجم الجنود
صباحاً ، ثم انضم القرويون إلى المهاجمين ، واشتد القتال في الطرقات
واستمر ثمانية أيام كانت فيها الحامية في موقف حرج ، وحاولت
الحكومة تلافى الحالة بالتساهل على الأساس القديم أى بمنح الحكم
الذاتي وحرية المطبوعات والعفو العام ولكن زعماء الثورة من جميع
الطبقات أجابوا بأنهم لا يرضون عن دستور ١٨١٢ بديلاً . ولما
فشل قائد الحامية في مباحثات الهدنة انسحبت فجأة من الساحل ،

وعبر البحر إلى نابولي ، وكانت المدن الأخرى قد نارت أيضاً فلم يبق لحكومة نابولي معقل في الجزيرة إلا قلعة مسينة وثلاثة حصون أخرى .

وكانت الثورة في صقلية فاتحة ثورات هزت أوروبا في ربيع سنة ١٨٤٨ . وكان للجرأة التي أظهرها بضعة رجال في هجومهم على الحامية القوية وانتصارهم العجيب وإسقاطهم الفجائي لحكم آل بوربون تأثير عميق في إيطاليا وفي أوروبا . ولم يف أهل نابولي بوعدهم الذي قطعوه لباليرومو لأن (كارلو بوثيريو) أنشط رؤساء المؤامرة كان سجيناً فظل الأحرار مكتوفي الأيدي ، وثار أولا قرويو (سيلنتو) وانتشرت الثورة في أيلة ساليرنه . ولما شاع خبر اقتراب العصاة انتشر الذعر في المدينة وتعملل الأحرار الضعفاء وارتعد البلاط للأخبار المبالغ فيها . فاضطرت الحكومة إلى إخلاء سبيل (برثيريو) فنشط على أثر ذلك أنصاره للعمل ، وأعدوا مظاهرة كبرى لإغلاق الملك . ولما رأى فرديناند ضعف قواته استشار قواده مساء يوم ٢٧ كانون الثاني ثم منح الدستور .

قوى منح الدستور في نابولي عزيمة الأحرار في جميع أنحاء شبه الجزيرة وأخذوا يطالبون بمثله في كل محل . وكانت بيمونته أول من تأثر بهذا الخبر . وأشار الوزراء على الملك في ٢ شباط بمنح الدستور ، فكلف الوزراء بوضع لأئحة دستور وظل متردداً

بين الرفض والقبول . وأخذ جزع الناس يشتد يوما فيوما ثم صوت المجالس في تورينو وفي جنوة للدستور ، وارتعد قسم كبير من الرجميين من العاصفة فضموا أصواتهم إلى أصوات المطالبين به أملا من أن ينالوا الأثرية في مجلس الأعيان . وأشار مجلس الدولة على الملك بالموافقة لأن كل محاولة أخرى ستؤدي إلى حرب أهلية وارتاح ضميره حين نصحه مطران وطني وتمت الموافقة على منحه في ٨ شباط .

وامتدت الحركة من ييمونته إلى طوسكانه وكانت الحكومة قد أضاعت كل قوتها في مقاومة الشعب ، ولم يبق لديها إلا الحرس المدني الذي كان هو في مقدمة المطالبين بالإصلاحات . وكانت الوزارة بين الأخذ والرد حتى وصلت أخبار فوز الحركة الدستورية في ييمونته فقمضت على التردد ، وأعلن الدوق الكبير الدستور في ١١ شباط .

وبعد فوز الأحرار في ييمونته وطوسكانه أصبح صعبا أن ترفض روما الدستور ولم يستطع البابا أن ينسى الإهانة التي لحقته في حادثة (فرارة) فرفض الموافقة على طلب الحكومة التمسوية بمرور القوات من ممتلكاته لسحق حركة الأحرار في نابولي ، فاذعن للحركة الجديدة إذ مال إلى جانب أشد المعتدلين ، وحمى التعليم ، ورعى خطط الإصلاحات ، ومنح الامتيازات لشركات السكك الحديدية . وكان مازيني قد أرسل كتابا مفتوحا ألح عليه

فيه بمسيرة جليه ليؤسس الوحدة الإيطالية ، ولكن الأحرار كانوا ينسبون جميع الإهمال إلى الكرادلة الذين ظل البابا متمسكا بهم فل الناس الانتظار الطويل ، وفقد البابا سحره ، وأخذ حبههم له يتضاءل ، وأصبحت حظوته لدى الشعب تتوقف على إسرعه في تلبية طلبات الشعب الملحة المتزايدة . وقد أصر (روسي) على إسرعه في تلبية طلبات الشعب الملحة المتزايدة . وقد أصر (روسي) على البابا بالموافقة على وزارة علمانية وإقامة مؤسسات تمثيلية مهما كان شكلها وذلك لجلب المعتدلين إلى جانبه والقضاء على نفوذ المتطرفين ، وسئم المعتدلون الذين يؤلفون الأكثرية في مجلس الدولة معارضة الحكومة لقراراتهم ، وأصاب مساعدهم في إصلاح التعليم والإدارة والجيش العقم حتى إنهم بعد مناقشة حادة مع البابا تركوا الميدان ، وأفسحوا مجال العمل للمتطرفين وحدهم . وقد مالت الأمور في بعض أنحاء الرومانى إلى الفوضى ووقعت اغتياالات سياسية في بعض الأماكن بحجة القضاء على السنتوريون . وأخذ مازينى على الرغم من الكتاب الذى أرسله يشجع أصحابه على الطعن فى البابا ، وحين أصبح المجلس مشلول الحركة اتفق الأحرار على تركيز مطالبيهم فى القيام بإصلاح داخلى وتعيين وزارة علمانية تستعد للحرب . وكان القوميون المحافظون على أهبة الانضمام للمتطرفين لحمل البابا على تلبية المطالب الوطنية فاضطر بعد تردد طويل إلى الموافقة على تأليف وزارة أكثريتها علمانية ولكن

إرضاء البلاد بوزارة علمانية قد فات وقته ، وأخذت الالتماسات تتوارد من سائر أنحاء الرومانى وأومبريه وروما يطالب فيها المعتدلون والديمقراطيون مؤسسة تمثيلية . وأراد البابا وحكومته المhapلة ، ولكن لهيب الثورة أخذ يندلع فى فرنسه ، وتعاضم همياج الناس حتى أصبح التسويق يؤدى إلى نتائج خطيرة . فأظهر البابا آئذ ميله للديمقراطية ، ووافق على مطالبهم ، لكن الكرادلة رفضوا الدستور الذى وضعه روسى وقبلوا دستوراً من صنع أيديهم واتخذوا الألوان الثلاثة راية قومية .

الفصل الثاني عشر

الوثبة القومية

وقد أصبح ميسوراً للأمة بعد أن انتهت القضية الدستورية أن توجه جهودها نحو الحرب ، وكان لانتصار الثورة في فرنسا تأثير حاسم في أوروبا لأنه دل على أن التوفيق كان بجانب الحركات المناهضة واعتبرت النمسة خبر إعلان الجمهورية في فرنسا ضربة موجهة إليها لأن الجمهورية في فرنسا ستعطف حتماً على الحرب التي تخوض إيطاليا غمارها للحصول على حريتها ، وأيقنت النمسة أن فرنسا وإنجلترا ستعلنان الحرب عليها فيما إذا أرادت أن تحتل الدويلات الإيطالية الحرة ، وكانت مجزرة ميلانو قد اضرمت نار الحقد في جميع أنحاء إيطاليا حتى أخذ الناس ينظرون إلى المعركة المقبلة بفارغ الصبر ، وكانوا يعلمون أن الشارة يجب أن تعطى من قبل لمبارديه أو ييمونته ، وكان كل ما يستطيع أن يقوم به الوطنيون المتحمسون في هذه الفترة أن يحملوا على اليسوعيين أصدقاء النمسيين لأن المعركة إنما كانت بين الاستبداد والديمقراطية ، فاليسوعيون كانوا بطبيعة الحال في جانب النمسة ، وكان جيورتي قد ذكر في كتبه أن الاتحاد النمسي-اليسوعي هو أكبر عقبة في سبيل الإصلاحات ، وسمى اليسوعيين بالأعداء الألداء لإيطاليا ، ولما تأكدت الحكومات

في إيطاليا من كره الشعب اليسوعيين قدمتهم طعمة لهم لتسكين الهياج ، فترك الآباء اليسوعيون جنوه ، وكانت حوادث الدستور سبباً في الهجوم النهائي عليهم فطردهم أهل ساردينه من الجزيرة ، ثم قامت مدينة تورينو والكسندرية وسبريه بالعمل نفسه ، وهرب الآباء من نابولي ليعودوا إليها متنكرين ، ولما وردت أخبار الثورة في فينا طلبت الجماهير في روما طردهم ، وعلى الرغم من أنهم علقوا الراية المثلثة الألوان على مبانيهم فإن البابا بيوس حاول أن يحميهم ثم اضطرت الحكومة أمام العاصفة إلى إغلاق مبانيهم .

أما في لبارديه فكان أهلها يستمدون للمعركة العظيمة ، وأخذ الناس يوالون اجتماعاتهم السرية في أماكن معينة واجتمع آلاف من الناس في الكتدرائية يشكرون الله صامتين على منح الدستور في نابولي . أما في البندقية فقد صرف الناس النظر عن عيد الكرنفال ، وجمعوا الأموال لضحايا فتنة التبغ وأوقفت الحكومة توماسو ومانين وأحاطتهما للمحاكم بتهمة الخيانة العظمى ، إلا أن المحكمة برأت ساحتها بعد دفاع مجيد ، فأودعتها الحكومة السجن . ولاح لراديتسكى القائد العام في ميلانو أن العصيان العام والحرب في ييموته على قاب قوسين ، ومع أن قوته كانت تبلغ سبعين ألفاً إلا أن نصف هذه القوة كان من الطليان الذين لا يوثق بهم فأخذ يرسل الرسالة تلو الأخرى يطلب المدد ، وأخذت القوات تتحشد في غروبيجية ، وترك نائب الملك والحاكم العام مدينة ميلانو

وكان للثورة الافرنسية أثر عظيم في اندفاع البعض من المترددين وجعلت القسم الأعظم من الأهلين يفقدون الصبر فبعثوا إلى الملك شارل البرت يقولون : « إذا لم تتجاوزوا نهر نسينا فسنعلن الجمهورية » . وبلغ الاندفاع بالزعماء حداً رأوا معه أن لا يعتمدوا على الملك أكثر مما فعلوا وأن يثوروا في بضعة أيام .

وكانت ييمونته تترقب الحوادث بدقة متناهية ، ففتنة التبغ ومجزرة الطلاب في بافيه وأمور أخرى كانت تزيد النار اشتعالاً ، وأصدر دازجياو رسالة بمصائب لبارديه ، ومع أنه كان من المعتدلين فقد صب اللعنات على النمسة كأكثر المتحمسين تطرفاً ، وقد تألفت وزارة جديدة برئاسة بالبو دخل فيها (باريتو) زعيم الأحرار في جنوه . وكان بالبو يميل إلى الحرب ضد النمسة من جهة ويخاف من مطامع فرنسه في صافويه من جهة أخرى . وبدلاً من أن يحشد القواد على الحدود اللباردية فقد وزعها على أنحاء المملكة ، ودعا ثلاثة دفعات إلى السلاح ، وقبلت الوزارة بفتور تكليف طوسكانة وروما بالحلف الدفاعي لتبقى حرة في حركة الهجوم على ما يظهر ، أما الملك شارل البرت فعلى الرغم من خشيته مما تؤدي إليه الثورة الافرنسية ومن الطعن باليسوعيين ، فقد اجتمع برسل ميلانو وطمنهم بأنه وشعبه سيمشقان الحسام في سبيل نجدة المدينة حين تثور .

وفي ١٧ — أزار وردت أخبار مهيجة إلى ميلانو وتتلخص في أن الحركة في هنغاريا قد اشتدت ، ووصل صداها الايلات

الألمانية وأصبحت فينا معقل الاستبداد في حالة عصيان مما اضطر
مترنيخ إلى تقديم استقالته . فقد وعد الامبراطور بحرية المطبوعات
وتأليف الحرس الأهلي ودعوة مجالس الدولة في لبارديه ، وشاهد
الميلانيون صباح الغد مرسوم الامبراطور معلقاً في الجدران من
دون إشارة إلى حرية المطبوعات ، وكان الخبر قد وصل قبل ذلك ،
فبذل الزعماء طول الليل جهدهم لترتيب مظاهرة وهيئوا البيانات
وكان الشعب لا يحتاج الى مشوقات فقد تأكد من أن ساعة العمل
قد حانت فكتب (كاساتى) على المرسوم هذه الكلمات « متأخر
جداً » ، واجتمعت جماهير كبيرة من الأهلين برئاسة كاساتى
وذهبت الى دار نائب الحاكم فقتلت الخفراء ودخلت الدار وأرغمته
على التوقيع على المرسوم الذى وضعه رئيسهم ، وكان ينص على
تسريح الشرطة وتحويل المجلس البلدى حق تأليف الحرس المدنى .
وأراد كاساتى أن يتفاهم مع راديتسكى ، ريثما يحرك شارل البرت
ساكنه إلا أن الزعماء الشعبين رفضوا كل تفاهم لا يتضمن
الاستقلال التام العاجل . فهاجمت الجماهير الجنود الذين كانوا
يمرون بالشوارع بالآجر والحجارة والآنية ، وصبت عليهم الماء
أو الزيت الفائر ، وهزمت جماعة مسلحة فوجاً بكامله ، ونهب
الناس السلاح من الدكاكين التى تصلح السلاح ، وأقاموا الموانع
فى الطرقات ، وقضت بعض القطع العسكرية ست ساعات فى
معركة حامية لأجل أن تفتح لها الطريق إلى قصر البلدية . وفى

الليل أقام المتطرفون الشبان الذين قادوا الجماهير في النهار مظاهرات
الموانع ، وفي صباح الغد استمر القتال بعنف ، وامتد إلى جميع
أنحاء المدينة وبلغ من شجاعة الأهلين وحماستهم أن شاين قاوما
سرية يوماً كاملاً ، وقد اشترك في القتال نساء وصبيان ، قتل
البعض منهم . وأخذت الكنائس تدق نواقيسها فتشجع المواطنين
على الكفاح وتثير الذعر في نفوس النمساويين . وفتح الأغنياء
أبواب قصورهم للفقراء الذين أصبحوا بلا دور ولم تقع أى جريمة
ماعدا بعض السرقات الطفيفة . وكان الفقراء يأتون بالذهب الذى
وجدوه فى خزائن الحكومة وعومل الأسرى بعطف ووضعت
الشرطة المكروهة فى مأمن .

وبوصول الإمدادات بلغت قوات راديتسكى عشرين ألفاً
فى ميلانو ومع ذلك لم تستطع أن تسيطر على الموقف إذ وهنت
معنوياتها بالجوع وبالمرط الشديد . وكانت حادثة الكسوف قد
ألقت الذعر فى نفوس الجنود من الحرواتيين المعتقدين بالخرافات
وخضع البعض من الجنود الطليان ، بينما الآخرون ولا سيما الجنود
من موارفيه وبوهيمية فقد دفعهم اليأس إلى القسوة فارتكبوا
فظائع تقشعر لها الأبدان حتى راديتسكى نفسه لم ينجل من أن
يأمر جنوده بقتل الأسرى من الأهلين . واضطر بعد ذلك إلى
إخلاء الكندرائية ، واستولى أهل المدينة على جميع الحصون
المحيطة بها فقدر راديتسكى حرج الموقف إذ لو تحرك الجيش

البيمونتي بسرعة لقطع عليه خط الانسحاب فاضطر أخيراً إلى طلب الهدنة . إلا أن اللجنة التي استلمت كتابه رفضت شروط راديتسكي بعد أن هب الشعب يطالب باستقلاله وسفك دمه في سبيل حريته .

وأخذ يتوارد على أذهان أهل ميلانو السؤال التالي : هل يجب أن يطلبوا مساعدة شارل البرت ؟ وكان أكثر زعماء الحركة من الجمهوريين الذين ينظرون إلى مدى أبعد من الاستقلال ، إلى عهد الأخوة والإصلاحات الاجتماعية العظيمة الشأن . وكان (كتاينو) أحد هؤلاء الزعماء يريد أن يمحصر الحركة في النزاع بين الديمقراطية الميلانية وبين الجيش النمساوي ، وكان يكره البيمونتين كرها عظيماً وقد أرسلت إلى الملك في ساعات القتال الأولى رسالة استنجد فجاء الجواب وعداً بالمساعدة فيما إذا وصل إليه طلب من قبل شخصية ذات مقام في ميلانو ، وأصبح الناس في عشية الانتصار وهاجم المتطوعون الذين هرعوا من موزة وكومة وبرغامه ، الأبواب الخارجية فلم يبق بيد النمساويين في صباح ٢٢ — آذار إلا القلعة والحصون . وهاجم أهل ميلانو الأبواب من الداخل واستولوا على أحدها مساء ثم استمر القتال طول الليل وكانت في أثناءه مدافع القلعة تضرب المدينة . وكان راديتسكي قد قرر الانسحاب قبل يومين بعد أن أخذ الجوع والذعر يهددانه . وقد أظهرت الحادثة للعالم أن جماعة غير منظمة لا تملك السلاح

فى أول أمرها قد هزمت جيشا منظما كامل العدة بعد قتال عنيف استمر خمسة أيام ، سميت أيام ميلانو الخمسة وغدت من مفاخر إيطاليا .

أما البندقية فقد تخلصت من دون سفك دماء وأعلنت الجمهورية ، إذ أنه حين وردت أخبار فينا فى ١٧ — آذار استولى الجمهور على السجن وأخل سبيل مانين وتوماسو ، وأدار مانين دفعة الأمور بالكياسة التى تقتضيها الظروف . وكان أظهر مقدرة عظيمة كرجل سياسى فى قضية مد السكة الحديدية بين ميلانو والبندقية إذ استطاع بلباقته وصلابته أن يحمل السلطة على مد تلك السكة بصورة تلائم الرغبات القومية . وقد أدرك أن دور استعمال الوسائل المشروعة للحصول على الآمال الوطنية قد فات فأصبح الهدف الذى يتوخاه بعد خروجه من السجن هو طرد النمساويين من المدينة بلا سفك الدماء وصيانة أرواحهم إلى حين تأسيس الحكومة .

وكان لدى النمساويين سبعة آلاف مقاتل فضلا عن الأسطول المرباط بالقرب من المدينة ، ونصف هؤلاء الجنود والقسم الأعظم من بحارة الأسطول من الطليان ، والدلماسيين . وقد اضطربت السلطات فى المدينة لسقوط مترنيخ ولاقطاع أخبار فينا عنها ، وحدث أن أطلق الجنود الرصاص على الجمهور فدىق ناقوس كنيسة القديس ماركوس يدعو الأهلىن إلى القيام ، ونشرت الرايات المثلثة

الألوان ، وكان مانين يعرف كيف يعتمد على العامة من أهل البندقية ، وكان يقول للذين لا يثقون بهم : « أنتم لا تفهمونهم ومزيتي الوحيدة أنى أفهمهم » . وكان أول عمل قام به أن طلب إلى الحاكم الموافقة على تأليف الحرس المدني ، وحين تمت الموافقة كان أربعة آلاف نفس قد انخرط في سلك المتطوعين . وبينما كان البعض من الزعماء ميالا إلى قبول الدستور النمساوي الجديد كان مانين وصحبه يستعدون لإعلان الجمهورية بعد أن شجعتهم أخبار ميلانو ، وليس في هذا ما ينافي الهدف العام في الوحدة الإيطالية . فستندمج فينيسيه فيها نزولا عند إرادة الأمة ، وفكر مانين في الاستيلاء على دار الصناعة البحرية ، وبينما كان يضع الخطة لذلك إذا بالثأرين يتسرعون فيقتلون الحاكم المكروه ، فأصبح همه أن ينقذ الموقف قبل أن ينتقم النمساويون ، فتقدم بعشرين رجلا من الحرس المدني نحو دار الصناعة ، وكان يعلم أنه سوف ينال عطف العمال وأكثر جنود البحرية القائمين على حراستها ، واستحوذ الرعب على الضابط حين رأى رجال مانين واعتداده فسلم إليه مفاتيح دار الصناعة . وهكذا وقعت أعظم دار للصناعة في إيطالية بيد مانين ، ثم أذعن النمساويون للأمر الواقع ، وأخلوا المدينة ، وحين غادروها أعلن الجمهورية ، وأصبح الدكتاتور . وانتشرت الأخبار في جميع أنحاء لمبارديه وفنيسيه ، وانحاز الجنود الطليان إلى المعسكر الوطني في مدينة (أودينو وبالمانوفه

وترفيسه وفيسنسه) ، وتحررت أيلة فينسيه تماماً ما عدا مدينتي
(فيرونه ولجناجو) . أما في لمبارديه فهاجم أهل مونزه وبرغامه
الحامية ، وبعد قتال عنيف في الشوارع اضطروها إلى التسليم
أو الانسحاب . وأخلت حامية بافيه المدينة ، وانضمت حامية
(بريجتونه) إلى معسكر الوطنيين بسلاحها وعتادها . وهب أهل
الجبل في الشمال فاحتلوا المضائق حتى صار القسم الجنوبي من
التيرول على أهبة العصفان ، وأصبحت قوات النمساويين الساترة
المشتتة في الوديان في حالة بؤس . وغدت القوات النمساوية في
ماتويه وفيرونه وفي المدن الأخرى لا حول لها ولا طول ، وفيما
وراء وادي بو استسلمت (كاكيتو) إلى متطوعي (رافيتيه) ؛
أما حكومة البابا فرفضت الموافقة على مهاجمة (فرارة) . وهكذا
لم يبق بيد النمساويين سوى حصن (فرارة) والقلاع الأربع في
المدن الأربع . وكان للأيام الخمسة صدى رنان دوى في جميع
أنحاء إيطاليا ، وقد أخبرت بارمه بعد التغلب على الحامية دوقها
أن يمنحها الدستور وأن يدخل في الاتفاق التجاري الإيطالي
إلا أن ذلك لم يقنع الأهلين ، فاضطر الأمير بعد بضعة أسابيع
إلى ترك البلاد ، وطردت مدينة (بياسنسة) اليسوعيين وأقامت
حكومة أهلية . أما في مودينه فهرب الدوق مع الحامية النمساوية
على أثر اقتراب متطوعة بولونيه .

أما في فلورنسة فأحرقت الجماهير شعار السفارة النمساوية ،

وذهب ثمانمائة متطوع إلى الحرب على النمسا . ولما رأت الحكومة أنها لا تستطيع المقاومة أعلنت الحرب ، وأعلن الدوق بعبارات طنانة : « أن ساعة البعث الإيطالي قد دقت » ، بينما اعتذر إمام النمساويين بأنه لم يفعل ذلك إلا حرصاً على سلامة العرش ، واجتازت متطوعة بولونية نهر بو ، دون أن تهتم لموافقة الحكومة على حركتها ، وتوغلت في ايلالة فينيسيه حيث كان روكي الذي هرب من السجن يسمى لجمع جيش من التطوعة ومن الهاربين من الجيش النمساوي .

أما في روما فذهب ألفان من المتطوعين إلى الحرب بعد وصول الأخبار بثلاثة أيام ، وكان جميع الجيش فيها على أهبة الحركة وأخذت المدن في الأيالات ترسل متطوعاتها حتى بلغ عددهم في دويلات البابا حسباً قيل اثني عشر ألفاً . وأرسلت نابولي متطوعاتها أيضاً واستعدت الحكومة بعد أن رأت ضغط الناس عليها إلى إرسال ستة عشر ألفاً من جيشها النظامي بقيادة بيّة . وبعد مضي شهر أرسلت صقلية أيضاً قوة صغيرة ، وهكذا طفت الموجه الوطنية الزاخرة على إيطالية ، وجرفت معها البابا والأمراء ورجال الأكليروس والأشراف والتلاميذ والعمال والطبقة الوسطى كلها والمدن والأرياف . وانتابت الجماهير أنوبة من الحماسة لإيقاد لومبارديه وفنيسيه من الحكم الأجنبي ، فن الطلاب والعمال الذين تركوا أهلهم ودراساتهم وذهبوا إلى ميادين القتال البعيدة لمحاربة

العدو واحتمال المصائب ، إلى الفتيان الذين تشردوا من المدرسة للاشتراك بالحرب ، وأخذ الأحداث في المدارس المدنية يتدربون على أساليب الجندية ، فلا القانون ولا الأشغال الرسمية كانت تستطيع أن تحول دون إقبال الشعب على السلاح ، وأخذ الناس كلهم يلبنون نداء الرهبان الوطنيين ويتبرعون بالمال لينفق في سبيل الحرب . وقدم الأغنياء ذهبهم وحلأهم ، وأعطى الفقراء أثمن شيء لديهم وأخذت الحماصة فتاة من مدينة بولونية فقصت شعرها وقدمته . وكان الرهبان يباركون الأعلام ، وحمل المتطوعون على أكتافهم الصليب وذهبوا للقتال في سبيل قضية مقدسة .

وما أسرع ما لبث تورينو نداء ميلانو ففي اليوم الثاني من الأيام الخمسة امتلأت الطرقات المؤدية إلى الحدود بجماهير النافرين إلى الحرب ، وكان كافور يخطب في حماسة بالغة في المجالس الخصوصية وفي العلانية صائحاً : « إلى الحرب إلى الحرب ، بلا ترث » . وكان الشرف يقضى على ييمونته بأن تنضم فوراً إلى جانب لومبارديه ، وقد سنحت الفرصة لشارل البرت كي يرضى طموحه القديم ، وينتقم من النمسة ، ويفسل عار سنوات حداثته ، وبرهن حقاً على أنه (سيف ايطاليه) . وقد كانت الثورة الإفريقية بمثابة إنذار له فإذا انتظر أكثر من ذلك فقد تعلن الجمهورية في لومبارديه ويزعزع عرشه ، ورغم ذلك فإنه بقي ينتظر وتتنازع الخشية من مصير هذه العاصفة الديمقراطية وتدعوه لموازرتها.

والخوف من لوم السياسة الأوربية واتهام رجالها إياه بأنه اتفق مع الثورة .

وفي ٢٢ آذار تأكد من أن الشروط التي اشترطها على الميلانيين قد نفذت ، واطمأن إلى أن حركتهم ليست جمهورية فاتجه عزمه نحو الحرب وفي المجلس الذي ترأسه كان وزراءه الضعفاء الحائرون لا يزالون مترددين ولكن الوزيران (باريتو وريجي) من أهل جنوة قالوا بإعلان الحرب فوراً كما يرى الملك ، ولم يستطيعوا إقناع زملائهم بذلك الرأي إلا بمشقة كبيرة ، وفي الغد جاء الرسل من ميلانو يحملون بشرى الانتصار ، وحمل الملك الوشاح المثلث الألوان الذي أرسلته المدينة ، وصرح أمام الجمهور بأنه يقف نفسه في سبيل قضية الأمة ، وأعلن بعد يومين من ذلك في ندائه للحرب أنه دائماً يقدم مساعدته لشعوب لبارديه وفنيسيا ، باسم الله والبابا وما يبذله الأخ لأخيه والصديق لصديقه .